القاعدة السا
التغيير والإ

مدخل : (الإصلاح للأوضاع الدينية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية وغيرها مطلب وغاية، والحاجة إليه قائمة، والتغيير للنفس والمجتمع من الآفات وسيلة للإصلاح).

لا يشك اثنان من أهل العقل السليم والقلب الصحيح أن واقع وحال أمتنا الإسلامية حب الدنيا، وكراهية الموت، وهو سر الوهن الذي أصاب أنفسهم، ونزع الرهبة من صدور أعدائهم.

وشاعت فيهم ظوهر غير صحية كإضاعة الصلوات، وإتباع الشهوات، والاستهانة بالفرائض، واقتراف المحارم، وترك الائتمار بالمعروف، والتناهي عن المنكر، وضيعت الأمانة، ووسد الآمر إلى غير أهله.

وسبب ذلك: ضعف الإيمان في صدور الناس، ذلك الإيمان الذي كان يحفزهم إلى الخير إذا تكاسلوا وتقاعسوا، ويزجرهم عن الشر إذا أغرتهم المغريات.

مفهوم التغيير والإصلاح الذي ننشده:

إن التغيير والإصلاح الذي ننشده يعني ضمن ما يعني: تصحيح الاعوجاج في الأمة، وتعديل المنحنيات والانحرافات عن الطريق القويم والنهج المستقيم، على أن يكون – أي إصلاح – حازمًا وواضحًا بدون مواريه أو تردد أو خجل، لأن هذا أدعى إلى الحق وأقرب إلى الرشاد، فما عاد الموقف يتطلب سوى المواجهة الصادقة والشجاعة مع النفس بحثًا عن الحق والتزامًا به.

لهذا فثمة أمور لا بد أن من تتحقق بداية:

الأول: أن الإصلاح للنفس والأسرة والمجتمع ومؤسساته هو الهدف والغاية بعيدًا عن أي هدف آخر يرفع براية الإصلاح

الثاني: أن يكون الإصلاح كلًا لا يتجزأ، وكاملًا لا يتوزع، وإذا

ما بدأت مسيرته فيجب أن لا توقفها أي مغريات للنفس أو ترهيب لها من داخلها أو خارجها.

الثالث: أن يكون الالتزام به شاملًا للأفراد والمؤسسات حتى تأتي نتائجه متوازنة.

الرابع: أن التغيير وسيلة للإصلاح لكن يجب أن يبدأ التغيير لكل سلبي من النفس كما يجب أن يكون جذريًا لا أن يكون سطحيًا أو مؤقتًا.

رؤى جزئية للتغير والإصلاح:

في الساحة الإسلامية أفراد وجماعات يبذلون جهودهم لتغيير واقع الأمة، لكنهم مختلفون فيما بينهم في المنهج الذي يحقق الهدف الذي قاموا من أجله:

- فمنهم الذي اختار التغيير الذي يقود إلى الإصلاح بالقوة، فتوجه إلى تصفية الممتلكات والمقدرات بل والشخصيات في الدولة التي يعيش فيها، وقد يحكم بعض هؤلاء على من لا يرضى ما هم عليه من فكر ورأي فيستبيحون دمه، وقد جرت خطوب وأهوال في كثير من ديار الإسلام بسبب هذا التوجه على مدار التاريخ.
- ومنهم من يرى أن علاج الأمة يتحقق بتكوين بعض الجمعيات الخيرية والمؤسسات الفكرية والسياسية، وأن ذلك هو السبب الأول لكل ارتقاء وأن قوله تعالى: [هود: 117]، هو الذي ينبغي أن يكون المؤشر الحقيقي في مسألة الصعود والهبوط.
- ومنهم من يرى أن الإصلاح يتأتى بمقاومة الاستبداد السياسي الذي جثم على صدر الأمة طويلًا، وكان سببًا للبلاء والكوارث ومن ثم فلابد من الشورى وتقييد الحكومات، والسعي الجاد للضغط عليها، وإظهار مخاصمتها، والوقوف بريبة ضد مشاريعها، والنظر إلى تصاريح ولاتها بمنظار السلبية.

ولذا كان لا بد من التغيير الجذري الذي بنيت عليه أفكار وأحزاب في كثير من الدول الإسلامية، وتناقلتها كثير من الجماعات

الإسلامية.

ومن هنا لتعزيز هذه الرؤية تبرز الأخطاء الكبرى عند هذه الدول والمجتمعات.

يقول الكواكبي: «وبفقدان الحرية تفقد الآمال، وتبطل الأعمال، وتموت النفوس، وتتعطل الشرائع»[1].

- ومنهم من يرى أن النهضة الصحيحة للأمة تكمن في الارتفاع الفكري، على الأساس الروحي، فإذا وجدت الأفكار وجدت النهضة، وإذا عدمت الأفكار كان الانحطاط، فإن الأفكار في أية أمة من الأمم هي أعظم ثروة تنالها الأمة في حياتها وإن كانت الأمة ناشئة، وأعظم هبة يتسلمها الجيل من سلفه إذا كانت الأمة عريقة من الفكر، وإذا دمرت ثروة الأمة المادية، فسرعان ما يمكن تجديدها ما دامت الأمة محتفظة بثروتها الفكرية، أما إذا تداعت ثروة الأمة الفكرية، وظلت الأمة محتفظة بثروتها المادية فسرعان ما تتضاءل هذه الثروة، وترتد الأمة إلى حالة الفقر.

إن هذا النهج عند أصحابه قد أدى إلى ضمور الجانب الروحي والتفاعل الإيماني الداخلي، ولذا فإنك ترى هؤلاء القوم يسهرون الليالي في تداول الفكر وتدارسه، والحوار حوله، والجدل به، ولكنهم لا يعنون بالعبادة والذكر والدعاء والصلة بالله.

- ومنهم من يرى أن المنهج الذي يغير أحوال الأمة ويرقى بها يحتاج إلى اختراع واكتشاف، وأن مهمة أصحاب العقول استقراء تاريخ البشرية، والنظر في ثمار عقول الفلاسفة والمفكرين والمصلحين كي يستلهموا المنهج، وهؤلاء لهم بصمات واضحة في هذا المسار، وقد يظن هؤلاء أن هذا الذي يقومون به هو التجديد الذي تحتاجه الأمة الإسلامية، والذي أخبر الرسول ﷺ أنه يبعث للأمة من يقوم به على رأس كل قرن.

هذه بعض الأطروحات للنهوض بالأمة، وهناك طروحات أخرى، ويمكن أن نقسمها إلى قسمين:

القسم الأول: يرى منهج التغيير الجذري ويعنى به استئصال الأنظمة الحاكمة، ويتبعها أنظمتها السياسية والاقتصادية وغيرها،

---

[1]() أسس التقدم عند مفكري الإسلام: ص: (291).

وهذا يمكن أن يصطلح عليه: «منهج التغيير»، وهذا المنهج لا يرى ما يسميه: «الترقيع». وقد أخذ به جماعات وأحزاب على مدار التاريخ المعاصر.

والتجربة في بعض البلدان ولبعض الجماعات والأحزاب أثبتت فشله الذريع، فضلًا عن فشله في مرتكزاته الشرعية، والواقعية، ومنها:

1 – استعمال القوة التي يترتب عليها القتل والحبس والاعتداءات وتدمير الممتلكات.

2 – تأخر الأمة عن المشاريع البنائية والتنموية وغيرها.

3- الانشغال بهذه القضية دون غيرها سبب تمادي المجتمعات في الانحراف.

4- ما يترتب عليه من الخروج عن الحاكم المسلم دون المخالفات.

القسم الثاني: يرى منهج الإصلاح لما اعوج من الأخطاء، وهذا المنهج منه مناهج جزئية في جوانب إصلاحية معينة، ومنه مناهج متخصصة، كمن ينحو منحى الجمعيات الخيرية، أو إصلاح الأفراد، أو إصلاح جهة أو مؤسسة، أو يعالج مشكلة أو مشكلات، ومنه مناهج عامة تعنى بجوانب متعددة فكرية، واجتماعية، واقتصادية، وتربوية وغيرها.

وهذه المناهج تجتمع في منهج: «الإصلاح».

وهو المنهج الذي يثمر ثمراته إذا سار بضوابطه الشرعية، ومرتكزاته الواقعية، وهو ما أحاول الإسهام فيه وفق هذه الورقات.

الإسلام ومنهج التغيير والإصلاح:

يمكن أن تنتظم النقاط الآتية:

1- لقد كان القرآن الكريم واضحًا كل الوضوح حين قرر أن التغيير والإصلاح يجب أن يبدأ من الإنسان من نفسه أولًا، فتلك سُنة إلهية قضى الله بها ولن تجد لسنة الله تبديلا.

قال الله تعالى: [الرعد: 11].

وقال تعالى:

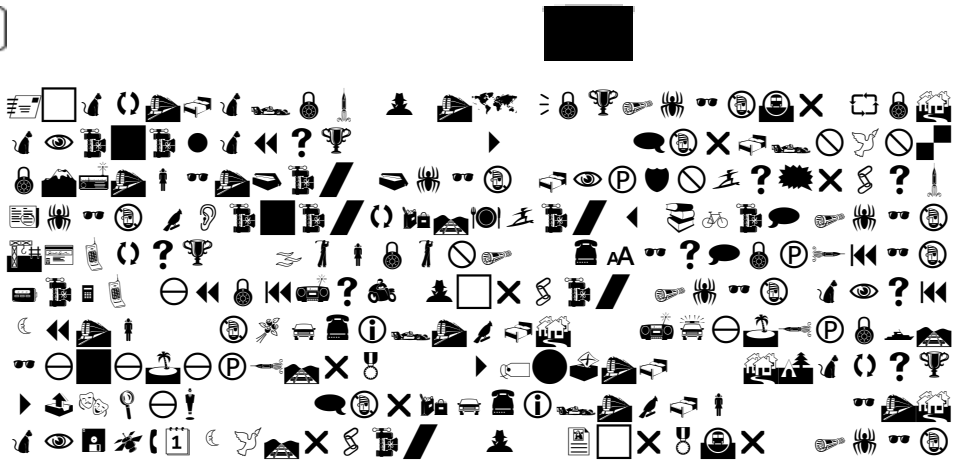
[الأنفال: 52 – 53].

ففي هاتين الآيتين يقرر سبحانه سُنة من سُننه، وهي أنه يغير ما بالقوم نتيجة تغييرهم لما في نفوسهم، وقد وضع ذلك في صيغة سنة ثابتة لا تتخلف ولا تحابي ولا تظلم، لقد مضت سنته أن تترتب مشيئة الله بالبشر على تصرف هؤلاء البشر وأن تنفذ فيهم سُنته بناء على تعرضهم لهذه السُنة بسلوكهم، وقد بينت الآيات السابقة أن هذه السنة عامة بالبشر جميعًا وليست خاصة بأمة معينة أو قوم بأعيانهم، بمعنى أن الله عزَّ وجلَّ يعامل جميع الأمم وفق هذه السُنة، فإذا غيرت الأمة ما بنفسها غير الله ما بها، فهو لا يحابي أمة من دون الأمم كما ادعى اليهود يقول الشيخ المراغي :: «... وكذلك لا يحابي الله بعض الشعوب والأمم بنسبها وفضل بعض أجدادها على غيرهم، بنبوة أو ما دونها فيؤتيهم الملك والسيادة لأجل الأنبياء الذين ينتسبون إليهم، كما كان شأن بني إسرائيل في غرورهم وتفضيل أنفسهم على جميع الشعوب بنسبهم، وهكذا شأن النصارى والمسلمين من بعدهم إذا اتبعوا سنتهم واغتروا بدينهم وإن كانوا أشد المخالفين له».

وذكر الله سبحانه في القرآن الكريم قول اليهود والنصارى ويرد عليهم شبهتهم فيقول الله تعالى:
[المائدة : 18].

وقال مخاطبًا المسلمين:

[التوبة: 39][2].

ومن هنا فالسنة الموجودة في آية الرعد عامة تنطبق على كل البشر، وليست خاصة بالمسلمين ولا بغيرهم.

2- ويفهم أيضًا من القرآن أن هذه السنة جماعية وليست فردية بمعنى أن كلمة «بقوم» تعني الجمع أو الجماعة التي يطلق عليها أمة أو مجتمع، والقوم اسم جمع لا واحد له من لفظه.

3- ولا يفهم من هذا أن تغيير الله النعمة التي بالقوم لا يتم حتى يغير جميع القوم ما بهم، بل إن الله يغير النعمة بنقمة إذا قام بذلك التغيير بعضهم، كما يشهد لذلك هزيمة المسلمين في أحد، فإن الله نصر المؤمنين أول الأمر فلما غير بعضهم ما بأنفسهم بمخالفتهم توجيه الرسول ﷺ هزمهم الله، قال تعالى:

[آل عمران: 165]، وقال تعالى في آية أخرى:

[آل عمران: 152]، وفي ذلك يقول الإمام القرطبي: (أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغيّر ما بقوم حتى يقع منهم تغيير ، إما منهم أو من الناظر لهم ، أو ممن هو منهم بسبب تغيير الرماة ما بأنفسهم إلى غير هذا من أمثلة الشرعية؛ فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير؛ كما قال ﷺ وقد سُئل أَنَهلِك وفينا

---

[2]() انظر: تفسير المراغي: (17/10-18).

الصّالحون؟ قال: «نعم إذا كَثُر الْخُبْثُ»[3]، وإنما تعم سنة التغيير في المجتمع كله، حتى ولو كان ما بالنفوس من فريق دون فريق، وإنما يكون ذلك بسبب تهاون الفريق الآخر وتقصيره في الأخذ على أيدي تلك الفئة التي غيرت ما بأنفسها، أو بسبب رضاهم وسكوتهم عما فعلوا.

قال صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا . فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا»[4].

ويوضح هذه الحقيقة قوله تعالى: [الأنفال : 25].

وفي الآيتين اللتين تتحدثان عن التغيير فهما تغييران: تغيير الله وتغيير القوم، ففاعل التغيير الأول حسب قواعد الإعراب هو لفظ الجلالة الله وفاعل التغيير الثاني هم القوم.

وفي النص ترتيب في حدوث التغييرين: التغيير الأول هو تغيير القوم ما بأنفسهم، والتغيير الثاني هو تغيير الله عز وجل ما بهم، ولا يحدث التغيير الثاني حتى يحدث الأول، فـ«حتى» في اللغة تفيد انتهاء الغاية، فيدل ذلك على أن الله عز وجل لا يغير ما بقوم حتى يكون القوم قد أحدثوا في أنفسهم تغيير[5].

4- أن تغيير ما بنفس الإنسان ليس بالأمر الهين السهل، كما يتصور بعض الناس، فليس بمجرد الوعظ والإرشاد يتغير ما بنفس الإنسان، وليس بالأوامر العسكرية يتغير الإنسان، ولا باللوائح الإدارية يتغير الإنسان، ولا بالتنظيمات الشكلية يتغير الإنسان، إنما

---

[3]() أخرجه البخاري: (4/168رقم3346)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، ومسلم: (4/2207رقم2880)، كتاب الفتن، باب اقتران الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج.

[4]() أخرجه البخاري: (3/182رقم2493)، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه.

[5]() انظر: السنن الإلهية في الحياة الإنسانية: (1/10-13).

يتغير الإنسان من داخل نفسه بتغيير أهدافه ومثله ومعتقداته وقيمة وتصوراته ومفاهيمه، بإضاءة عقله، وإحياء ضميره، وإيقاظ وجدانه، وشحذ إرادته، وتزكية نفسه، وتهذيب سلوكه، وهذا يحتاج منا إلى إعادة بناء الإنسان في وطننا الكبير.

إن الإنسان في مجتمعات بعض المسلمين قد تعرض لتغيير من داخله، جعله لا يهتم إلا بذاته دون النظر إلى الجماعة أو الوطن أو الأمة، ولا يهمه من ذاته إلا جانبها المادي، فهو يلهث وراء المنفعة واللذة فحسب، والمنفعة المادية، والآنية أيضًا.

إنه لم ير في نفسه إلا الطين والحمأ المسنون، أما نفخه الروح، وجوهر الإنسان.. فهو في شغل عنه، بل هو يكاد لا يعرفه ولا يؤمن به، فلا يبحث عنه.

لقد كان أول ما بدأ به النبي ﷺ هو بناء الإنسان بتحريره من أباطيل الشرك، وأهواء الجاهلية، وترسيخ عقيدة التوحيد في نفسه، ومعاني الإيمان في قلبه، ومكارم الأخلاق في حياته، وتطهير رأسه من ضلال الفكر، وإرادته من شهوات الغي، وعلى هذا ربى الجيل المثالي الأول، الذي امتحن فصبر، وأعطي فشكر، وثبت على السراء والضراء، وجاهد في الله حق جهاده، وتحمل عبء نشر الدعوة، وتربية الأمة، فما وهن لما أصابه في سبيل الله وما ضعف ولا استكان.

وكان هذا هو مفتاح النجاح الحقيقي لكل ما حدث بعد ذلك من روائع الإنجازات[6].

فتلخص من هذا أن منطلق الإصلاح يبدأ من تغيير الإنسان نفسه، وتربيته، عقديًا، وفكريًا، وتربويًا، وأخلاقيًا.

وبناء على ذلك تعمل البرامج لهذا الإصلاح من الأفراد والأسرة والمؤسسات والمجتمع وأهل الفكر والعلم والرأي والدعوة والتجربة.

تلك الخطوة الأولى، والأساس في الإصلاح، وهي: «تغيير النفس من السلبية إلى الإيجابية».

مسارات الإصلاح:

ومن ثم ينطلق من هذا التغيير للنفس إلى إصلاح الأسرة،

---

[6]() الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي: ص: (221-222).

وإصلاح المجتمع.

هذا الإصلاح يأخذ عدة مسارات من أهمها:

الأول: المسار التربوي للفرد، والأسرة.

الثاني: مسار المجتمع ومؤسساته.

الثالث: مسار المجتمع بأنظمته التربوية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها.

ضوابط عامة لمسيرة الإصلاح المنشود:

لا شك أن الإصلاح من أعظم الغايات في هذه الحياة –كما سبق-، ولكي يُوصل الإصلاح المنشود يجب أن يكون منضبطًا بضوابط عامة، هي أقرب ما تكون إلى المنطلقات، وهي في الوقت نفسه جوامع يجتمع عليها جميع الدعاة فتمثل منهاجًا أو قل ميثاقًا مشتركًا، ومن أهمها:

1 – الاعتماد على القرآن الكريم، والسنة النبوية، واتخاذهما المصادر الأساس للدعوة والإصلاح كما هي للتشريع.

2 – أن يبنى فهمهما وفق فهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة.

3 – المصالح والمفاسد: قاعدة عظيمة في الاجتهاد وبالذات في الحكم على الأشياء، أو اتخاذ المواقف تجاه النوازل. ولذلك يتخذ في الاجتهاد الجماعي الذي يتطلب الحوار المستمر.

4- إيضاح المتفق عليه، وما لا يجوز الخلاف فيه لينطلق الجميع سنة، وحرز للعيان.

5 – العمل بضوابط الخلاف السائغ فيما يسوغ الخلاف فيه، ومن ذلك تعدد الأساليب، وتنوعها، وإعمال القدرات والمواهب ونحو ذلك. ثم ما يترتب عليه من العذر عند المخالفة دون التثريب.

6 – **العمل وفق سنن الله عز وجل، وعدم مخالفتها مثل**: سنة التغيير والتبديل، وسنة النصر والهزيمة، وسنة التمكين، وسنة الابتلاء والامتحان وغيرها، فهذه السنة تعين على مسار الإصلاح.

7 – **العمل بالأصول الشرعية والأسس الدعوية، مثل**: الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والدعوة بالرفق واللين، وكذا وضوح الموقف من القضايا الأساسية التي تبنى عليها المواقف العملية

مثل: التعامل مع غير المسلمين.

8 – **العمل بالقواعد الشرعية، والاجتهاد في دراستها،** وتنزيلها على الواقع بالاجتهاد الجماعي.

9 – **الاستفادة من التاريخ وبخاصة سيرة الرسول** ﷺ **وخلفائه الراشدين،** والأئمة المصلحين، ودراسة مواقفهم ومناهجهم وبخاصة مع القضايا الكبرى مثل التعامل مع الحكّام والسلاطين، والتعامل مع المنكرات، وغيرها(7).

10- **اتخاذ المواقف في النوازل وبخاصة ما يكون من شأنها تغيير جذري،** أو تحدث مواقف متضادة ونحو ذلك باجتهاد جماعي، ودراسة متأنية وفق الضوابط السابقة، والحذر من تحكيم العواطف أو المواقف المستعجلة أو الفردية.

أحسب أن العمل بهذه الضوابط سيعين بإذن الله على الإصلاح الشمولي المنشود الذي يتناول إصلاح الفرد، وإصلاح المجموع.

كما يتناول الإصلاح الجزئي، والإصلاح العام وبهذا تتكامل برامج الإصلاح وتسير في خطوط متوازية يكمل بعضها بعضًا.

وعليه تبنى البرامج العملية وفق هذه الرؤية الشمولية، والتي من شأنها:

1 – وضوح مفهوم الإصلاح وعدم الغبش أو الضبابية معه.

2 – اتحاد منهجية الجميع وفق مسار واضح.

3 – تقليل مساحة الخلاف، ومن ثم تقليل نقاط النزاع.

4 - التوافق مع القيادة للبلدان الإسلامية وعدم التصادم معهم.

5 – عدم التراجع في مسيرة الدعوة في الجملة.

6 – عدم دخول الأعداء صفوف الدعوة فتفرقها.

7 – سلامة القلوب، ونقاوة الضمائر، وتقليل فرص الشيطان وتأثيره على النفوس.

وأخيرًا نلخص هذه القاعدة في النقاط الآتية:

1 – أن التغيير سنة من سنن الله تعالى.

2 – أن التغيير المنشود هو طلب الإصلاح، وليس ما يعنيه بعض

---

(7) يشار هنا إلى أنه يتردد أحيانًا مواقف من بعض الأئمة تكون هي الطاغية في الاستدلال، وقد لا تكون منهاجًا دائمًا، أو قد لا تثبت صحتها، أو يوجد من يخالفها. أو تكون اجتهادًا فرديًا. ونحو ذلك والمطلوب الدراسة التكاملية لتطبيقات السلف رحمهم الله.

الدعاة والمفكرين من تغيير الحكومات والأنظمة لمجرد ذات التكثير.

3 – أن الإصلاح ينطلق من إصلاح الفرد نفسه، ومن ثم الأسرة، والمجتمع، وهذا يؤكد على عنصر التربية للأفراد روحيًا وعلميًا وفكريًا.

4 – أن الإصلاح يتناول جميع الشعب التربوية، والاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

5 – أن الإصلاح مهمة عظيمة ومجال للتفرق في الوقت نفسه، فيحتاج إلى ضوابط أشبه ما تكون بميثاق يجتمع عليه الجميع في اتجاه واحد.

6 – العمل في طلب هذا الإصلاح بروح التكامل لا التضاد ما دام أن الجميع في المسار نفسه.

□□□□□

القاعدة الثا
العقل والع

مدخل: (الداعية الموفق هو الذي **يجمع** دعوته بين إعمال العقل وإمتاع العاطفة في منهجه وأحكامه ومواقفه وأسلوبه).

وبيان ذلك: أن في النفس الإنسانية قوتين: قوة تفكير، وقوة وجدان، وحاجة كل واحد منهما غير حاجة أختها، فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم، والبيان التام هو الذي يلبى في المدعو هاتين الحاجتين ويطير إلى نفسه بهذه الجناحين، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية.

ومن ثم فمن جمال أسلوب الداعية، وجذبه الناس إلى الاستماع له، وتأثرهم به أن يتضمن أسلوبه ما يثير العاطفة ولا يطغى عليه، ومن قوة حجة الداعية، ومتانة أسلوبه أن يحتوي على ما يحرك العقل، ولا يقتصر عليه.

فمن الناس: من هم أصحاب عاطفة، يتأثرون بما يثير الوجدان، ويتلمس القلوب، ومنهم من يتأثر بالقناعات العقلية، والقضايا الفكرية.

وبناء على هذا: فإن من حكمة الداعية أن يعم بخطابه الصنفين: العقلانيين والعاطفيين، وأن يشمل أسلوبه الطرفين.

وقد رسم القرآن الكريم منهج الدعوة في قوله تعالى: [النحل: 125].

وهذا خطاب للنبي ﷺ ولكل من يبلغه الخطاب من بعده، وهو يتضمن الدعوة بـ «الحكمة» التي تقنع العقل، و«الموعظة» التي تحرك القلب، وللحكمة أهلها، وهم الذين يغلب عليهم النظر العقلي،

وللموعظة أهلها، وهم الذين يغلب عليهم التأثر العاطفي، ولا مانع أن يمزج الداعية الحكمة بالموعظة أو العقل بالعاطفة، كما يفيده العطف والاقتران بينهما في الآية الكريمة[8].

وفيما يلي نلقي الضوء على بعض المعالم في هذا الموضوع:

أولاً: التوازن بين خطاب العقل والعاطفة في القرآن الكريم:

ونظرًا لأهمية هذا التوازن بين العقل والعاطفة، فقد جاء القرآن الكريم متوازنًا توازنًا بديعًا في هذا الشأن، فقد تضمن الأسلوب القرآني هذين الأمرين.

فانظر إلى هذه النصوص، وهي تطرح البرهان، وتثير العقل.

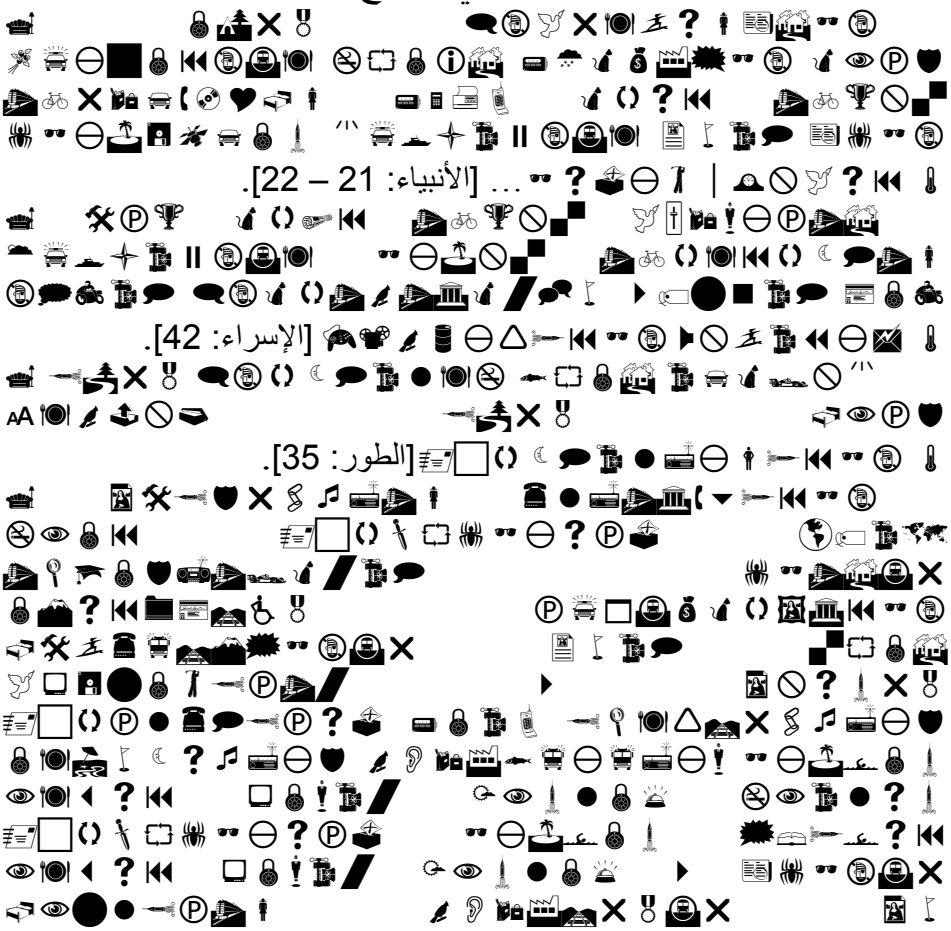

[8]() كيف نتعامل مع القرآن العظيم: ص: (509).

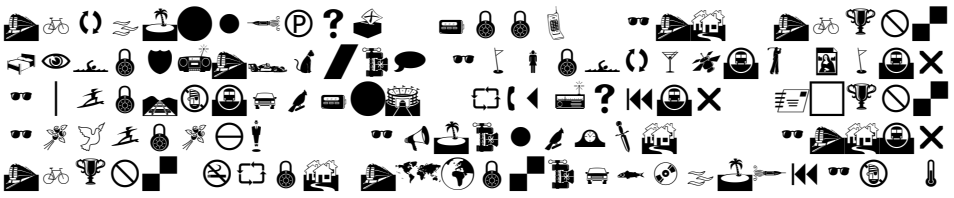

[آل عمران: 65 – 67].

فما أبدعها من إلزامات عقلية، وما أصدقها من براهين فكرية تخضع لها العقول الصحيحة، ويسلّم لها الفكر السليم، لينظر إلى الجانب الثاني، جانب النصوص التي تثير وجدان الإنسان، وتحرك عاطفته، بأسلوب رقيق، وعبارات مؤثرة.

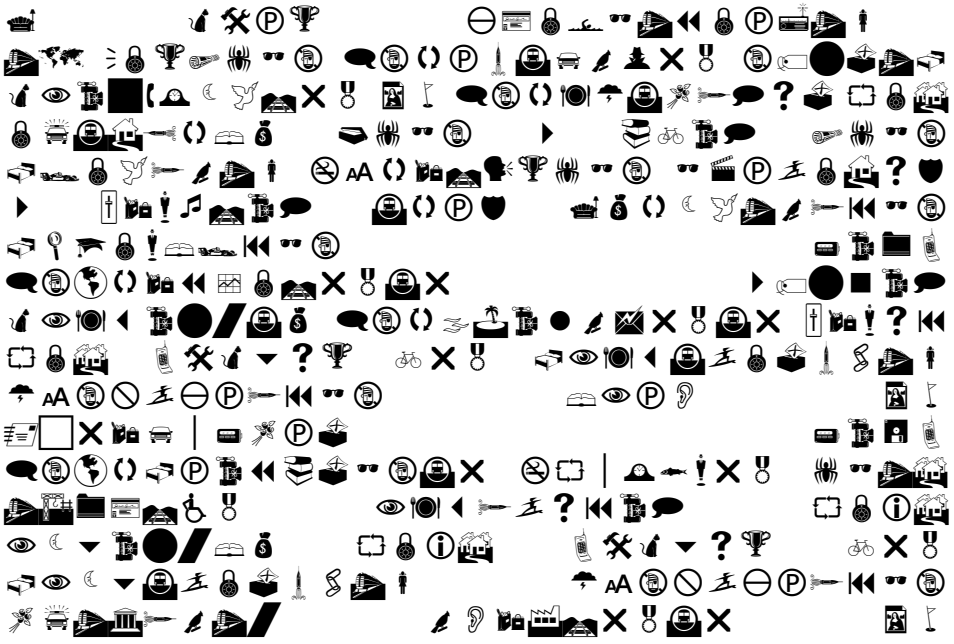

[الزمر: 53 – 55].

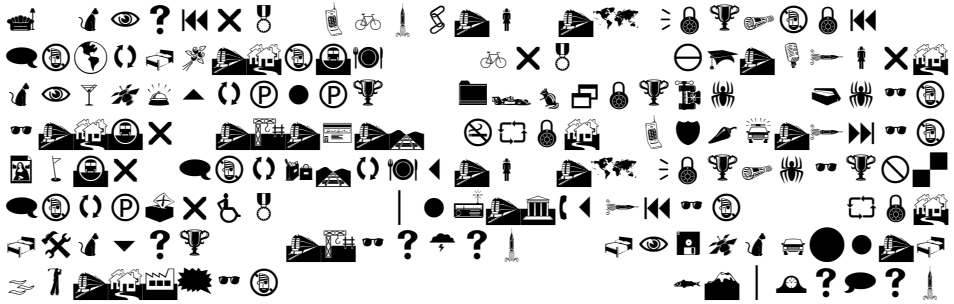

[الحديد: 16].

[النساء: 147].

[النساء: 27].

[النساء: 66 – 70].

ومن جميل ما تضمنه القرآن الكريم: أن يحوي النص الواحد على

ما يثير العقل، ويحرك العاطفة جميعًا، ومن ذلك:

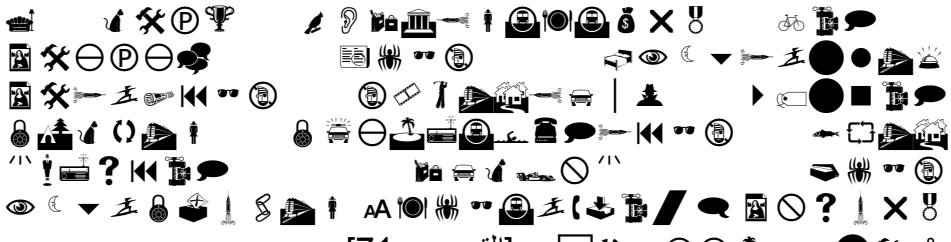

[القصص: 71].

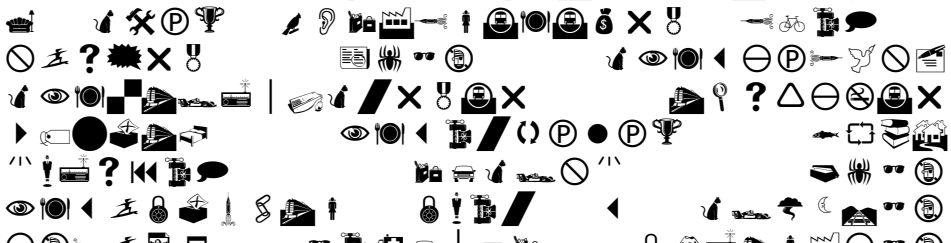

[الأنعام: 46].

[الملك: 30].

ففي هذه الآيات تحريك للعقل بقوله: (قل أرأيتم) أي: ما رأيكم؟ وهو تحريك للعقل، وإثارة للفكر- كيما يحمله هذا الأمر على التفكير، ويدفعه إلى التفكير، فيما لو حصل ما نبه الله إليه، من استدامة الليل، أو استدامة النهار، الأمر الذي يدفعه إلى مزيد من الإيمان، ومزيد من شكر الله على نعمه.

ثم كان طرح الأمر طرحًا مثيرًا للعاطفة، يدفع إلى الخوف من الله أن يجعل: (اللَّيْل سَرْمدًا)، (النَّهَار سَرْمدًا).. (أخذ السمع)، (أخذ البصر).. (ختم القلب)، (غور الماء).

وفي هذا: تحريك للقلوب وخشية الرحمن، والالتجاء إليه، والإيمان بربوبيته، وأنه بيده كل شيء وهو قادر على كل شيء، والإيمان بألوهيته حتى يعبد وحده، ولا يلجأ إلى أحد سواه.

وتأمل قوله تعالى:

[النمل: 62].

ففيها أيضًا جمع بين خطاب العقل، ومناجاة القلب؟

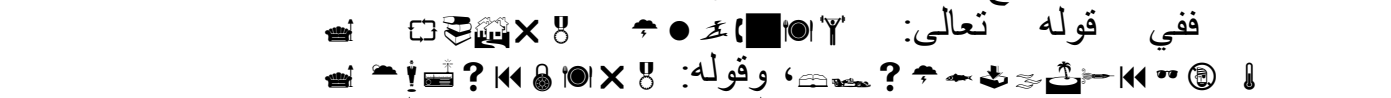

ففي قوله تعالى: [redacted]

وقوله:

محاكاة عقلية، وقضية فكرية، فإذا لم يكن يستطيع ذلك إلا الله، فلم اللجوء إلى غيره؟!.

فهل لكم عقول تفكر؟ أو قلوب تعقل؟ أيكون مع هذا الإله العظيم الذي هو على كل شيء قدير آلهة ضعفاء يرون ما أخذ الله منكم، أو يحبونكم إن لم يحببكم الله؟.

ومن خلال هذا الطرح العقلاني، يسوق الله ذلك بأسلوب عاطفي، يناجي به القلوب، ويحرك به الوجدان.

فذكر الله في خطابه «المضطر» و «كشف السوء» و«الدعاء» فيه مخطابة للأفئدة، ومناجاة للعاطفة، لأن الاضطرار، وكشف الضرر، تتأثر بها القلوب، ويستفيض لها الوجدان[9].

وبالجملة فلا يوجد في الدنيا كتاب يجمع بين هذين الطرفين معًا سوى القرآن الكريم، يأتي بالحقيقة ويحرك الوجدان والعاطفة.

ذلك أن الله رب العالمين، فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن، وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معا بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معا يلتقيان ولا يبغيان، وأن يخرج من بينهما شرابًا خالصًا سائغًا للشاربين، وهذا هو ما تجده في كتابه الكريم حيثما توجهت وقرأت وتدبرت.

ثانياً: التوازن بين العقل والعاطفة عند الرسل:

وكذلك نهج الرسل عليهم الصلاة والسلام هذا المنهج العظيم، منهج الموازنة في الخطاب بين العقل والعاطفة.

فانظر إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو يجمع بين مخاطبة القلب والعقل، إذ يقول:

---

[9] () انظر: منهج الدعوة في ضوء الواقع المعاصر: ص: (298-300).

[مريم: 42].

ففي قوله: (يا أبت): مخاطبة للقلب، وإثارة للعاطفة.

وفي قوله: (لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر..) خطاب للعقل، وحض على التفكير.

ويقول يوسف عليه الصلاة والسلام لمن معه في السجن:

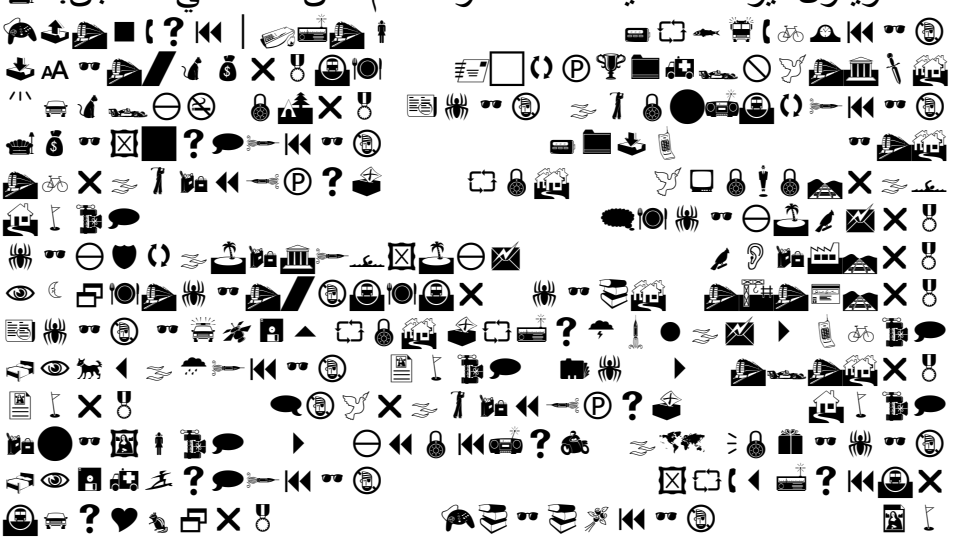

[يوسف: 39 – 40].

وقد تضمن هذا الأسلوب عاطفة، وعقلانية، وتقريرًا.

ففي قوله صلى الله عليه وسلم: (يا صاحبي السجن) عاطفة، إذ لم يجد شيئًا آخر يحرك به عاطفتهم تجاهه إلا صحبة السجن.

وفي قوله: (أأرباب متفرقون): تحريك للعقل، استنطاق للتفكير.

وفي قوله:

: تقرير وحكم.

ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم يأمره الله تعالى أن يقول لقومه وقد اتهموه:

[سبأ: 46].

فالموعظة مخاطبة للعاطفة لأنها تورث الشفقة وترقيق القلوب القاسية، ثم يربط العاطفة بالعقل فيقول: (ثم تتفكروا) ثم يحكى لهم الواقع الملموس لديهم جميعًا: (ما بصاحبكم من جنة) إذ لا يستطيع أحد من المخاطبين أن ينكر تلك الحقيقة ماعدا المكابرين منهم، إن محمدًا ﷺ قد عاش فيهم قبل النبوة أربعين عامًا لم يعرف عنه جنون، ولم يصبه مرض منفر، فكيف ينكرون ذلك، ويزعمون بعدما جاءهم بالحق الواضح والبراهين الصريحة أنه مجنون، فذلك بلا شك افتراء لا يليق بالعقلاء[10].

ثالثاً: السنة ومخاطبة العقل والعاطفة:

لم يكن منهج الرسول ﷺ وأسلوبه في الدعوة إلا مستمدًا من القرآن الكريم، ومن ثم كانت السنة في خطابها، تجمع بين حض العقل على التفكير، ومناجاة الوجدان والقلب بما يحركها.

1- ففي مجال مناجاة القلب والوجدان نجد قوله ﷺ لأصحابه وهو يعلمهم: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد»[11]، وهل ثمة عاطفة أبلغ من هذه.

يقول الخطابي معقبًا على هذه العبارة: «كلام بسيط وتأنيس للمخطابين، لئلا يحتشموه ولا يستحيوا عن مسألته فيما يعرض لهم من أمر دينهم، كما لا يستحى من الولد عن مسألة الوالد فيما عنّ وعرض له من أمر، وفي هذا بيان وجوب طاعة الآباء، وأن الواجب عليهم تأديب أولادهم وتعليمهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين»[12].

كما اتضحت العاطفة الحانية في أفعاله ﷺ وضوحًا ساطعًا، وذلك في تقبيله للأولاد، وعدم ضربه أحدًا من المسلمين، وعفوه عمن آذاه.

---

[10] () انظر: منهج الدعوة في ضوء الواقع المعاصر (301، 302).

[11] () أخرجه أبو داود: (1/7رقم8)، كتاب الطهارة، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة، والنسائي: (1/38رقم40)، كتاب الطهارة، باب النهي عن الاستطابة بالروث، وابن ماجة: (1/208رقم313)، كتاب الطهارة باب الاستنجاء بالحجارة والنهي عن الروث والرمة.

[12] () معالم السنن (1/18).

ومعلوم أن أسلوب الداعية لا يقتصر على الكلام، بل يشمل الأفعال كذلك، بل ربما كانت أدل على المقصود.

روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ط، أن الأقرع بن حابس أبصر النبي ﷺ يقبل الحسن، فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدًا منهم، فقال رسول الله ﷺ: «إنه من لا يَرحم لا يُرحم»[13] وما ضرب امرأة، ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط، فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيئًا من محارم الله، فينتقم الله عز وجل[14].

قال القرطبي: «والرحمة: هي رقة وصنو يجده الإنسان في نفسه عند مشاهدة مبتلى، أو ضعيف، أو صغير يحمله على الإحسان إليه، واللطف به، والرفق، والسعي في كشف ما به، وقد جعل الله هذه الرحمة في الحيوان كله –عاقله وغير عاقله- فيها تعطف الحيوانات على نوعها، وأولادها، فتحنوا عليها، وتلطف بها في حال ضعفها وصغرها، وحكمة هذه الرحمة تسخير القوى للضعيف، والكبير للصغير حتى ينحفظ نوعه، وتتم مصلحته، وذلك تدبير اللطيف الخبير.

إذا تقرر هذا: فمن خلق الله تعالى في قلبه هذه الرحمة الحاملة له على الرفق، وكشف ضر المبتلي، فقد رحمه الله تعالى بذلك في الحال، وجعل ذلك علامة على رحمته إياه في المآل، ومن سلب الله ذلك المعنى منه، وابتلاه بنقيض ذلك من القسوة والغلظ، ولم يلطف بضعيف، ولا أشفق على مبتلى، فقد أشقاه في الحال، وجعل ذلك علمًا على شقوته في المآل، نعوذ بالله من ذلك)[15]، ولذلك قال النبي ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن»[16]، وقال: «لا يرحم الله من عباده إلا

---

[13]() أخرجه مسلم: (4/1808رقم2318)، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال.

[14]() أخرجه مسلم: (4/1814رقم2328)، كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام.

[15]() المفهم: (6/108، 109) بتصرف.

[16]() أخرجه أبو داود: (4/285رقم4941)، كتاب الطب، باب في الرحمة، والترمذي: (4/323 رقم1924)، كتاب البر والصلة، باب رحمة المسلمين.

الرحماء»[17]، وقال: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»[18].

2- وأما في مجال العقل، ففي السنة الشيء الكثير، فمن ذلك قوله ﷺ عندما سئل: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر، قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر»[19].

قال القرطبي: «وقولهم أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر» استفهام من استبعد حصول أجر بفعل مستلذ يحث الطبع عليه وكأن هذا الاستبعاد إنما وقع من تصفح الأكثر من الشريعة، وهو أن الأجور إنما تحصل في العبادات الشاقة على النفوس المخالفة لها، ثم إنه ﷺ أجابهم على هذا بقياس العكس –وهو عمل عقلي- فقال: «أرأيتم لو وضعها في حرام؟» ونظمه: كما يأثم في ارتكاب الحرام يؤجر في فعل الحلال، وحاصله راجع إلى إعطاء كل واحد من المتقابلين ما يقابل به الآخر من الذوات والأحكام.

ومن خطاب العقل أيضًا، أنه ﷺ لما سئل عن العدوى: أرأيت البعير الأجرب يكون في الإبل فيجربها فقال ﷺ: «فمن أعدى الأول»[20].

وسألته امرأة عن حكم الحج عن أمها التي ماتت، فأجابها: «أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضية؟ اقضوا الله، فالله أحق بالوفاء»[21]، فهذه خطابات تحرك العقل وتدفع نحو التفكير، ومن ثمّ يتوجه الاقتناع.

3- وكثيرًا ما كان رسول الله ﷺ يمزج بين خطاب العقل وتحريك العاطفة وإثارة الوجدان.

روى الإمام أحمد بإسناد جيد عن أبـي أمامة أن فتى شابًا أتى

---

[17]() أخرجه البخاري: (7/152رقم5656)، كتاب المرضى، باب عيادة الصبيان.

[18]() أخرجه أبو داود: (4/286رقم4942)، كتاب الأدب، باب في الرحمة، والترمذي: (4/323 رقم1923)، باب ما جاء في رحمة الناس.

[19]() أخرجه مسلم: (2/697رقم1006)، كتاب الزكاة، باب بان أن الصدقة يقع على كل نوع من المعروف.

[20]() أخرجه البخاري: (7/166رقم5717)، كتاب الطب، باب الأصفر، ومسلم: (4/1742 رقم2220)، كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة.

[21]() أخرجه البخاري: (9/125رقم7315)، كتاب الاعتصام، باب من شبه أصلًا معلومًا بأصل مبين قد بين الله حكمهما ليفهم السائل.

النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم فزجروه، وقالوا: مه، مه، فدنا منه قريبًا، قال فجلس.

قال: أتحبه لأمك؟

قال: لا والله، جعلني الله فداءك.

قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم.

قال: أتحبه لأختك؟

قال: لا والله، جعلني الله فداءك.

قال: ولا الناس يحيونه لأخواتهم.

قال: أتحبه لعمتك؟

قال: لا والله، جعلني الله فداءك.

قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم.

قال: أتحبه لخالتك؟

قال: لا والله، جعلني الله فداءك.

قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم.

قال فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وأحصن فرجه»، فلم يكن شيء أبغض عليه من الزنا[22].

وهكذا ترفق النبي ﷺ بالشاب في البدء، ثم أقنعه عقليًا ووجدانيًا بقبح الزنا وأثره على الأخلاق والمجتمع، فبعد أن رأى ﷺ انجذاب الشاب إليه، وإقباله عليه، وقناعته العقلية بالذي حدث به، دعا له بهذه الدعوات الكريمات، ذات المعنى والمغزى، فقام من بين يدي رسول الله وليس شيء أبغض عليه من الزنا.

وعن جابر بن عبد الله ط أن رسول الله ﷺ مر بالسوق داخلًا من بعض العالية، والناس كنفه – أي جانبه – فمر بجدي أسك -أي صغير الأذنين- ميت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: «أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به؟ قال: أتحبون أنه لكم؟ قالوا: ما نحب أنه لنا بشيء ما نصنع به؟ قال: أتحبون أنه لكم؟ قالوا: والله لو كان حيًا كان عيبًا فيه لأنه أسك فكيف وهو ميت، فقال: والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم» [23].

ففي هذا الحديث استخدم رسول الله ﷺ المشهد للتأمل والعبرة،

---

[22] () مسند أحمد: (5/256- 257)

[23] () أخرجه مسلم: (4/2272رقم7418)، كتاب الزهد، باب الدنيا سجن المؤمن.

فالمكان الذي وعظهم به ﷺ من خلال مشهد الجدي الميت كان السوق، الذي هو مظنة الغفلة، والتطلع إلى نماء الأموال وزيادة الثروة، فكانت الموعظة بمثابة هزة قوية تناسب غفلة أهل السوق، دعاهم فيها إلى التأمل والتفكر، وأشعرهم بتفاهة الدنيا التي هانت على الله تعالى كما هان عليهم هذا الجدي الميت المنتن، ولا شك أن هذه الموعظة والعبرة ستتكرر لدى كل مسلم، كلما مر بجيفة منتنة، يدعوه مشهدها إلى الموازنة الصحيحة المطلوبة.

وعن عمر بن الخطاب ط أنه قال: (قدم رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تبتغي إذ وجدت صبيًا في السبي فأخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله ﷺ: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها») [24].

لقد أثار رسول الله ﷺ عاطفة الصحابة ن من خلال هذا المشهد الممتلئ رقة ورحمة وشفقة من قبل أم وجدت ابنها بعد فقده، فانكبت عليه تقبله وتحتضنه وتلصقه ببطنها فبين لهم أن رحمة الله بعباده فاقت رحمة هذه المرأة بابنها.

وفي الوقت الذي أثار قيه العاطفة حرك كوامن العقل من خلال طرحه السؤال ومقارنته بين رحمة الله تعالى ورحمة الأم لزيادة ترسيخ الاعتقاد بذلك، حتى يكون ذلك الأمر مقترنًا بالحدث، ولا يكون مدعاة للنسيان.

موقف الداعية من هذه القاعدة:

إن الداعية الحكيم الذي ينبغي أن يكون منهجه وأحكامه وخطابه مؤثرًا هو الذي يتضمن إثارة العاطفة، وتحريك الفكر، فيجمع بهذا بين الأمرين، فإذا خاطب مدعويه خطابًا عاطفيًا أيّد خطابه هذا بالأدلة المقنعة والحجج الدامغة، وإذا خاطبهم بما يثير العقل، حلاه بالإثارة الوجدانية والمناجاة القلبية.

فإن محركات العقل تدفع إلى الاقتناع والتسليم.

وإن مناجاة القلب لها أثر في الاستجابة والاطمئنان.

---

[24]() أخرجه البخاري: (8/9رقم5999)، كتاب التوبة، باب سعة رحمة الله، ومسلم: (4/2109 رقم2754)، كتاب التوبة، باب سعة رحمة الله تعالى.

وما يقال في حق الفرد يقال في حق المجموع من هيئات ومؤسسات وغيرها.

ولعلي بعد هذا التأصيل أضرب بعض الأمثلة التفصيلية في المواقف والأسلوب.

أولاً: في المواقف:

1- في موقف الدعوة من المنكرات وكثرتها:

فلو ركزنا النظر إلى حجم المنكر، وغلب على التفكير -عاطفيًا- دون أن يوضع في حجمه مع بقية الأعمال الدعوية الأخرى، فما الذي يحصل؟.

أ- استغراقه على الذهن.

ب- تضييع واجبات أخرى.

ج- قد يوصل إلى الغلو المنهي عنه.

ولو استهنا به ولم ينكر بناءًا على أنه منكر صغير أو لا يستحق تضيع الجهود فزدنا في النظرة العقلية المجردة، فما الذي يحصل؟.

أ- زيادة المنكرات.

ب- تراكم الأعمال.

ج- الوصول إلى التفريط المنهي عنه.

والموقف الحق – والله أعلم - أنه ينظر إلى كل عمل بحسبه سواء كان منكرًا كبيرًا في نظر الناظر أو أقل فينظر إليه النظرة المتوازنة العقلية والعاطفية المبنية على الأدلة الشرعية.

وهكذا يُجمع بين النظرتين لأجل أن توضع الأعمال الدعوية كلها في وضعها السليم.

2- مثال آخر: في موقف الدعوة من الأحداث العالمية والمحلية، لاشك أن الأحداث كثيرة ومتسارعة ويتطلب بيان الموقف منها، ومن ذلك -مثلًا- أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وقف الدعاة في أنحاء العالم مواقف متنوعة، ومنها:

فمنهم من نظر نظرة عاطفية فجعل هذا نكالًا بالكفار فشجع وبرر العمل دون أن ينظر النظرة العقلية المتأنية التي تزن الأضرار والمنافع.

ومنهم من نظر نظرة عقلية مجردة دون أن يحسب الآثار

العاطفية فلم يأبه بهذا الحدث وآثاره.

ومنهم من نظر نظرة أخرى وغلا في تقدير النتائج وحسبانها وأنه سيكون لها آثار على الدعوة، فحجّم الدعوة وانزوى واستجرم في نفسه.

ولتطبيق هذه القاعدة: أن يجمع بين النظرتين أو النظرات فيجرّم الفعل، ويبين آثاره، ويتبرئ الداعية والدعاة منه، ولكن لا تقف الدعوة أو تنحرف عن مسارها، أو يتنازل عن بعض الأحكام الشرعية، أو تتأخر بعض برامجها.

ويقاس على هذا الحدث مجموعة الأحداث.

3- ومثال آخر في الموقف من القضايا الفكرية في منهج الدعوة مثل: التعامل مع الكفار، ونجد الدعاة هنا أقسام:

- فمنهم من غلب النظرة العقلية في نظرة للتعامل مع الكفار، وغالبًا ما يسمى بالجانب الإنساني المشترك، فخف لديه أو ألغي جانب الولاء والبراء.
- ومنهم من غلبت عليه عداوة الكفار ونظر إلى عمق العداوة فأعلن الحرب عليهم مطلقًا، وألغى جانب: حسن التعامل الذي أمر به الشارع، فصار هذا الغلو ينمو لديه، وكلا النظرتين جانبتا الصواب فألغو عددًا من الأدلة الشرعية، والسبب غلبة جانب على جانب في النظر إلى الأدلة الشرعية وتطبيقاتها.

والحق والله أعلم الجمع بين النظرتين المبنية على الأدلة من الكتاب والسنة.

وهكذا في جميع القضايا والمواقف.

ثانيًا: في الأسلوب والخطاب:

وهذا واضح وقد سبق بيانه في أثناء التأصيل، ولذا فمن الخير أن يجمع الداعية في خطابه، والدعوة في منهجها بين الخطابين العقلي والعاطفي كما سبق بيانه، ومن ذلك:

1- موعظة المسجد.
2- موعظة السوق.
3- المحاورة مع المقصرين.
4- المحاورة مع غير المسلمين.

5- القصة المعبرة.
6- التسلسل في الأفكار.
7- الندوة التفصيلية.
8- الإجمال في موضعه.
9- التفصيل في موضعه وبخاصة في بيان الأحكام، أو تعقد المواقف، وإلى غير ذلك.

ومن هنا:

- فإن الاقتصار على الموعظة وحدها دون البحث الفكري قصور.
- كما أن الاقتصار على الطرح العقلاني المجرد دون مزجه بشيء من الخطاب العاطفي قصور.
- والاقتصار على الخطاب الحماسي دون وضوح للفكرة قصور.
- والاقتصار على النقد دون وضع الحلول قصور.
- الاقتصار على البناء دون إنكار المنكر قصور.
- والاقتصار على التعليم المجرد دون الوعظ والتذكير قصور.
- وإهمال العلم والتعليم وتحفيظ القرآن قصور.
- والاقتصار على عمل الأفراد دون المؤسسات قصور والعكس أيضًا.

وعليه فمن الخير للدعوة في منهاجها وأساليبها أن تتنوع في الأعمال، وأن يتخصص الأفراد في جوانب تسير في خطوط تكاملية، يكمل بعضها بعضًا اتباعًا لما جاء في القرآن الكريم وما وجه إليه النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته.

وكذا اقتصار الدعوة على أساليب معينه يعرضها للقصور وضعف النتائج والأشد من ذلك إذا اتخذت – مع هذا- التثريب على الآخرين في دعوتهم، فتضيع كثير من الجهود في تثريب بعضهم على بعض، وربما يصل الأمر إلى نقد الذوات، وولوج الشيطان على نفوس هؤلاء الدعاة، والنتيجة: ألا تصل الدعوة إلى الغاية والهدف التي ترنو إليه، وما يقال في الأسلوب يقال في اتخاذ المواقف.

وفي آخر هذه القاعدة أؤكد على أمرين –بعد التوصية بإعمال هذه القاعدة في المواقف والأحكام والأساليب-:

1 – أن التأكيد على الجمع في الأسلوب واتخاذ المواقف بين العقل

والعاطفة نعني بذلك المبني على الأدلة الشرعية لا على نظرة الإنسان المجردة، أو تأملاته الشخصية.

2- ومع هذا يجب تكامل الدراسات بأدواتها المختلفة وبخاصة في الأحكام والمواقف مثل اتخاذها.

3 - أنه لا يعني ذلك عدم التخصص بل إن التخصص مطلوب ولكن المراد الجمع بينهما والتكامل وعدم التثريب في المجموع، فلو تخصص داعية في الوعظ لا يثرب على غيره من تخصص في الجانب التربوي فاتخذ خطابًا تربويًا وهكذا في الخطاب الفكري والعقلاني، وإنما يعتز بعضهم ببعض فهم يتكاملون لأن كلًا يقوم بما لا يقوم به الآخر.

□□□□□

القاعدة التا
المثالية والو

مدخل: (بلوغ الكمال مثالية ومراعاة الفطرة البشرية وإمكانات الأفراد والمؤسسات واقعية، والداعية الناجح من يرنو إلى الكمال لكنه يراعي الواقع من جميع جوانبه في مسيرته الدعوية).

المقصود بالمثالية في الدعوة:

المثالية في الدعوة: هي أن يسعى الداعية إلى أن يبلغ الناس الكمال المقدور لهم، وهذا يكون بجعل تصرفاتهم وأقوالهم وأفعالهم وتروكهم وأفكارهم وميولهم وفق المناهج والأوضاع والكيفيات التي جاء بها الإسلام، وقد تحقق ذلك كله في رسول الله ﷺ، وذلك أمرنا الله تعالى بالتأسي به، فقال عز من قائل: [الأحزاب: 21].

والمقصود بالواقعية:

الواقعية تعني مقاربة الصواب والسداد، كما جاء في قوله ﷺ: «فسددوا وقاربوا وأبشروا...»[25].

أي اطلبوا السداد واعملوا به، وإن عجزتم فقاربوه، أي اقربوا منه، وقال ابن حجر: أي إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب[26]، وقال غيره: أي افعلوا السداد في العمل وهو التوسط فيه من غير إفراط ولا تفريط، «وقاربوا» أي: وإن لم تستطيعوا السداد في العبادة الذي هو الأكمل فقاربوا منه فإن ما قارب الشيء يعطي

---

[25]() أخرجه البخاري: (1/16رقم39)، كتاب الإيمان، باب الدين يسر.

[26]() فتح الباري (1/95).

حكمه[27].

حاجة الدعاة إلى الواقعية:

إن من أجل ما اتصفت به دعوة الإسلام وأعظمه: الواقعية في التصور، والواقعية في الطرح، والواقعية في المعالجة، والواقعية في التعبد.

وكيف لا يكون كذلك، وقد أنزله من خلق الخلق، وبعلم حالهم وما يحتاجون إليه قال تعالى: [الملك : 14].

أي لا يأمر المخلوق إلا بما يناسبه، وبما يناسب واقعه لما يعلم من طبيعته.

وقال تعالى: [البقرة: 286]، والمقصود بالواقعية ها هنا: فهم الواقع على حقيقته، والعمل وفق هذا الواقع، والإمكانات والقدرات، ومعالجة ذلك معالجة شرعية متوافقة مع كل ظرف، ومتجانسة مع كل حدث، ومتلائمة مع كل حال وواقع.

إن دراسة الواقع ومعرفة الظرف الذي يعيش فيه المسلم الداعية أمر ضروري فلابد من دراسة الإمكانات الذاتية المادية والبشرية، تفاديًا للاقتحام في مجال فوق الطاقة، ولابد في المقابل من التقدير الواعي للقدرات الذاتية، كما أنه لابد من المعرفة الدقيقة للبيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية... التي يعيش فيها الداعية.

فدراسة الواقع بمفهومه الواسع وفهمه هو السبيل لحسن تطبيق نظام الأولويات، وكلما كان هذا الفهم أعمق كان تحديد الأولويات أسلم وأصلح.

إن للظروف دورًا كبيرًا في تحديد: المواقف والأعمال، وقد يكون موقفًا معينًا يعيشه شخص يفرض عليه عملًا، لا يجب على غيره... وكل هذا يبين أن الأولويات الاجتهادية نسبية ومتغيرة، ويعني من جهة أخرى أن محدداتها الواقعية كثيرة منها ما يعود لحالة الشخص، ومنها ما يعود للظروف التي يعيش فيها، ومنها يعود للطاقة

---

[27]() انظر: نور الحق الصبيح (1/104).

والإمكانات[28].

ولاستجلاء النظرة الإجمالية السابقة نفصلها فيما يلي:

أولًا: الظرفية والواقعية.

إن النظر إلى الواقع واعتباره في الدعوة هو الذي جعل دعوات الأنبياء ترتبط بالقضايا الواقعية التي كانت تهم شعوبهم: «فدعوة شعيب عليه السلام ارتبطت بمشكلة اقتصادية، ودعوة موسى عليه السلام ارتبطت بمشكلة سياسية، ودعوة لوط عليه السلام ارتبطت بمشكلة اجتماعية... على الرغم من أن طبيعة الرسالة التي كلفوا بتبليغها كانت ذات طبيعة حضارية» [29].

وهذا الاعتبار للواقع هو الذي جعل النبي ﷺ يمكث في مكة ثلاث عشرة سنة ولا يكسر صنمًا واحدًا، وهو الذي حتم عليه تغيير أسلوب الدعوة وأولوياتها من مكة إلى المدينة، فإن أولويات العهد المدني كانت مخالفة لأولويات العهد المكي.

ثم إن الظرف الواقعي قد لا يكون مناسبًا لإنزال الحكم فيتعين على الداعية الصبر إلى حين تهيؤ ظرف أحسن، فقد ترك النبي ﷺ إعادة بناء الكعبة على قواعد إبراهيم عليه السلام، مخافة إثارة فتنة عند قوم حديثي عهد بكفر، لم يتمكن الإسلام من نفوسهم، كما امتنع عن قتل المنافقين تفاديًا للإساءة التي يمكن أن تلحق الإسلام، كما ... ﷺ في مكة من قتال المشركين، وأمر بالصبر على ما يأتي منهم من الأذى، ومن ذلك كثير.

وهذا الإيقاف أو التأجيل لبعض الأحكام أو ترك بعضها، أو العمل بأسلوب دون آخر بناء على قاعدة المصالح والمفاسد.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية مبينًا جواز القبول بما هو أقل درجة إذا لم يتيسر الأعلى، ويمثل لذلك ببعض الأمراء والحكام الذين يقيمون الجهاد، ويستوفون الحدود، ولكن لهم هوى في أمور أخرى، يقول عن الواحد من هؤلاء: «لا تطيق نفسه إقامة الحدود، وجهاد العدو إلا بحظوظ منهي عنها، من الاستئثار ببعض المال، والرياسة على الناس، والمحاباة في القسم، فهؤلاء وإن كان لا عذر لهم في فعلهم

---

[28] () انظر: فقه الأولويات: ص: (174، 175).

[29] () عن مقال بعنوان مناقشة آراء في العمل الإسلامي، مجلة الفرقان المغربية ع(18) س(5) ص: (12).

لحظوظ أنفسهم، ولكن يؤمرون بالحسنات، ويرغبون فيها، وإن علم أنهم لا يفعلون إلا بالسيئات»[30].

إن تقدير الموقف ونهج السلوك الذي يناسبه من الحكمة التي ينبغي أن يتصف بها المسلم في عمله الدعوى: وما لم توجد هذه النظرة التي تحسن تقدير الموقف... فإن الاضطرابات والمتاهات ستكون الغالبة على تصرفات الدعوة والدعاة.

ثم إن هذه المواقف لا ينبغي أن تبقى جامدة، بل يجب أن تتقلب بتقلب المتغيرات، فتعدل على ضوء ذلك التغيير باستمرار، فالدعوة الإسلامية اليوم تواجه واقعًا منحرفًا في كثير من جوانبه، مما يحتم على الدعاة العمل بحكمة وبصيرة وبخطوات ثابتة ورزينة وواقعية، فالتصرفات غير الموزونة والاندفاعات المتحمسة غير المنضبطة، تسيء إلى الدعوة أكثر مما تحسن لها.

يقول أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز : عندما استخلف: «ألا وإني أعالج أمرًا لا يعين عليه إلا الله، قد فنى عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، حتى حسبوه دينًا لا يرون غيره».

وقال له ابنه عبد الملك: يا أمير المؤمنين، ألا تمضي كتاب الله وسنة نبيه، ثم والله ما أبالي أن تغلى بي وبك القدور!.

فأجابه: إني أروض الناس رياضة الصعب[31]، أفتح الباب من السنة، فأضع الباب من الطمع، فإن نفروا للسنة، سكنوا للطمع، ولو عمرت خمسين سنة لظننت أني لا أبلغ فيهم كل ما أريد[32].

وفي الموافقات أنه قال لابنه: «وإني أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة، فيدفعوه جملة، ويكون من ذا فتنة» [33].

لقد تحمل : أعباء الخلافة في نهاية القرن الأول. ومع ذلك فهو يرى صعوبة إعادة الحق إلى نصابه جملة واحدة، فاتخذ سياسة «الخطوة خطوة» كما يقال اليوم، ومع الترغيب تارة، وحمل الناس على ما يكرهون تارة أخرى.

أليس من الأسلم للدعوة التدرج في رفع مستوى المسلم بخطوات

---

[30]() مجموعة الفتاوى (35/28).
[31]() الصعب من الدواب: نقيض الذلول السهل.
[32]() السنة للمروزي: ص: (26).
[33]() الموافقات: (2/93).

وئيدة ثابتة، ويكون ذلك أرسخ وأحرى أن تدوم حالته التي وصل إليها، والذي أسلم حديثًا هل نقدم له الإسلام جملة وتفصيلًا أم نأخذه بالأصول قبل الفروع حتى يتمكن الإسلام من قِبلَه، ثم نتدرج به ونقدم له التفصيلات، فيكون ذلك عونًا له على استقرار نفسه وفهم دينه، وإذا أتيح للمسلمين تطبيق الشريعة، هل يبدءون بالتحسينات قبل الضروريات والحاجيات، أم يبدءون بأصول الإسلام وأركان الإسلام، وتحقيق مقاصد الشريعة من حفظ النفوس وحفظ المال، ثم إقامة مشاريع العلم والتعلم، وكيفية حماية الدولة الناشئة، وإذا أتيحت للمسلم حرية يستفيد منها في نشر دعوته وإقامة شعائر دينه، فهل يرفضها، لأنها لا تحقق له كل المطلوب أم يقبلها لأنها تحقق بعض المطلوب؟

يقول الشيخ رشيد رضا: «ولحرية تبيح بعض المنكر ولا تمنع شيئًا من المعروف أهون من عبوديةٍ تنهى عن المعروف وتأمر بالمنكر، فالعبودية تطفئ نور الفطرة البشرية، والحرية تظهر مبلغ استعداد القوى الإنسانية»[34].

ثانيًا: الظرفية الشخصية: يقول الله تعالى: [الإسراء: 84].

فالآية تقرر أن كل شخص له طريقة في التعامل مرتبطة بمعتقده، ومواقف تحتمها أوضاعه وظروفه وإمكاناته ومركزه.

فالكل يعمل على الشاكلة التي تمليها عليه منطلقاته، فالكافر يتحكم الكفر في تصرفه وعلى ذلك فدعوته تختلف عن دعوة المؤمن الذي يهتدي بدينه.

والكل يعمل كذلك على الشاكلة التي يفرضها عليه واقعه، وبما أن هذا الواقع متغير من شخص إلى آخر، فإن الأولويات تتغير من شخص إلى آخر كذلك.

وكان هذا من أهم عوامل نجاح واستمرار الدعوة، والداعية.

فالناس أصناف وأجناس، فيهم الرجل والمرأة والقوي والضعيف

---

[34]() مجلة المنار مجلد (6/6).

والعالم والجاهل والأعزب والمتزوج والمسؤول وغير المسؤول والحضري والبدوي والساكن في مجتمع إسلامي والساكن في مجتمع كافر...وهكذا.

وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا يمكن أن تتساوى الأعمال الواجبة في حقهم جميعًا وقد اختلفت أوضاعهم ومسؤولياتهم.

وهذا رسول الله ﷺ لم يُولِّ أباذر الإمارة ونهاه عنها وعن كفالة اليتيم.

فعن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله، ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها»[35].

وفي رواية أخرى: عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفا ، وإني أحب لك ما أحب لنفسي ، لا تأمرن على اثنين ، ولا تولين مال يتيم»[36].

مع أن رسول الله ﷺ امتدح المقسطين من الأمراء والحكام وغيرهم بقوله: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[37].

وأخبر الرسول ﷺ أن كافل اليتيم يكون رفيقًا له في الجنة، فقال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة و الوسطى وفرج بينهما شيئًا»[38].

فتبين أن النبي ﷺ لم يول أبا ذر الإمارة ونهاه عنها وعن كفالة اليتيم لضعفه، فكان تركه هذين الأمرين أفضل له وأصلح خلافًا لغيره من المسلمين الأقوياء الذين تتحقق بتوليتهم الإمارة مصالح كثيرة للناس في دينهم ودنياهم، وكذا في كفالة اليتيم.

---

[35]() أخرجه مسلم: (3/1457رقم1825)، كتاب الإمارة، باب كراهية الإمارة بغير ضرورة.

[36]() المرجع السابق، رقم:(1826).

[37]() أخرجه مسلم: (3/2458رقم1827)، كتاب الإمارة، باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر.

[38]() أخرجه البخاري: (7/68رقم5304)، كتاب الطلاق، باب اللعان.

وبناء على هذا فعلى الدعاة ملاحظة هذا الجانب، وهو: ضرورة مراعاة اختلاف الواجبات بين الأشخاص، وهكذا فإن الإسلام راعى في تكليف الأفراد في قيامهم بالواجبات الشرعية بقدر أحوالهم وعلمهم وأوضاعهم، وأقرب مثال على ذلك أن واجبات الرجل تختلف عن المرأة، والزوج يختلف عن الزوجة، وشمولية المسؤولية لدى الوزير أكبر منها عند الموظف العادي.

وهذه من أهم مزايا هذا الدين إذ جعل التكليف بحسب حال الإنسان وبحسب طاقته.

وفي باب الدعوة يتعين هذا الفقه العظيم لتوضع الأشياء في موضعها، وتتعامل الدعوة مع واقعها، ويتعامل الداعية مع ظرفيته الشخصية.

ما قدراته؟ وما حدود تكليفه؟ وما مقدار علمه؟ وما تخصصه؟ هذه أسئلة يطرحها الداعية على نفسه، فبمقدار جوابه يحدد عمله الدعوي، وما يريد أن يقوم به، كما سبق في توجيه النبي ﷺ لأبي ذر ط؟ وكما كان الصحابة ن في أعمالهم، فأبو بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان ذو النورين وعلي بن أبي طالب ن أجمعين كانوا مستشارين للنبي ﷺ، بينما كان معاذ بن جبل ط فقيهًا وداعية، وخالد بن الوليد ط قائدًا في المعارك، وزيد ابن ثابت ط عالمًا فرضيًا، ومصعب بن عمير ط سفيرًا للنبي ﷺ، وعائشة ك فقيهة النساء، وزينت بنت أبي جحش ط أم المساكين لكثرة صدقاتها، وغير ذلك.

إن من الخير للداعية فقه واقعه الشخصي ليحدد مساره الدعوي، وكذا الدعوة في تعاملها مع أفرادها، ولذا، فمن مجانبة الصواب هنا تقليد شخص أو أشخاص، أو أتباع عاطفة معينة، أو حماسة مسئولية على القلوب.

فهذا يجيد العلم والتعليم فليبدع فيه، وذاك يجيد العلاقات الشخصية، وآخر فتح الله عليه في الصدقات، وآخر في الوعظ والإرشاد، وآخرون في الإغاثة، وآخرون في تتبع المنكرات وإنكارها، ونحو ذلك والتفضيل عند الله تعالى بقدر الإخلاص والاستمرار والجدية والنصح وسلامة العمل وجودته وإتقانه، وبعبارة

موجزة فإن الأعمال والواجبات تختلف من شخص إلى آخر جنسًا ومكانًا وزمانًا وموقعًا.

ثالثًا: الإمكانية: من رحمة الله بعباده أن ربط تكليفهم بالوسع ولم يكلفهم فوق طاقتهم، قال سبحانه وتعالى: [البقرة: 286]، وقال أيضًا: [التغابن: 16]، وتحقيقًا لهذه التوسعة جاءت التكاليف الشرعية مناسبة لجميع أحوال الإنسان العادية وغير العادية، ومن استقرائها اعتبر الأصوليون القدرة شرطًا من شروط التكليف.

ومعنى هذا أن التكليف إن لم يكن ممكنًا في حق شخص سقط عنه، لأن العزائم لا تفرض على المكلف إلا عندما تكون ممكنة، أما عندما لا يكون في متناوله ولا في طاقته –التمسك بها، فإن الرخصة في هذه الحالة تكون أولى، تفاديًا للهلكة أو لما دونها من الضرر، لذا قالوا: «لا واجب مع العجز ولا محرم مع الضرورة» (39).

وفي السنة النبوية أمثلة كثيرة على هذا، منها:

ما أخرجه البخاري ومسلم أن أبا هريرة ط قال: بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل، فقال: يا رسول الله هلكت، قال: ما لك، قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم، فقال رسول الله ﷺ: «هل تجد رقبة تعتقها؟» قال: لا، قال: «فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟» قال: لا، فقال: «فهل تجد إطعام ستين مسكينا؟» قال: لا، قال: فمكث النبي ﷺ فبينا نحن على ذلك أتي النبي ﷺ بعرق فيها تمر والعرق المكتل قال: «أين السائل؟» فقال: أنا، قال: «خذها فتصدق به»، فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله فوالله ما بين لابتيها - يريد الحرتين - أهل بيت أفقر من أهل بيتي؟ فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه ثم قال: «أطعمه أهلك» (40).

39() الرياض الناضرة والحدائق النيرة للشيخ السعدي، ص: (231)، وانظر: فقه الأولويات ص: (181).

40() أخرجه البخاري: (3/42رقم1936)، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان، ومسلم: (2/781رقم1111)، كتاب الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان.

قال القرطبي: «إن النبي ﷺ لما بين له ما يترتب على جنايته من الكفارة لزم الحكم، وتقرر في الذمة، ثم لما تبين من حال هذا: أنه عاجز عن الكفارة سقط عنه القيام بما لا يقدر عليه في تلك الحال، وبقي الحكم في الذمة على ما رتبه أولا، فبقيت الكفارة عليه إلى أن يستطيع شيئًا من خصالها، وهذا مذهب الجمهور، وأئمة الفتوى» [41].

وقال الحافظ ابن حجر في فوائد الحديث: «وفيه الرفق بالمتعلم والتلطف في التعليم والتألف على الدين... وأن المضطر إلى ما بيده لا يجب عليه أن يعطيه أو بعضه لمضطر آخر»[42].

هذه هي الواقعية التي ينبغي أن يراعيها الدعاة مع مدعويهم، وهذا من الفقه الدعوي الذي يكاد يضعف عند كثير من الدعاة.

ومن تطبيقاته الدعوية:

أ - ألا يتكلف الإنسان الداعية الخطابة مثلًا أو أي عمل وهو غير قادر فيضر أكثر مما ينفع.

ب – ألا يتحدث عن أمر وهو لا يعلمه فيأثم ولا يؤجر.

ج- ألا يُطلب من الناس أمر لا يفقهونه أو لا يستطيعونه وقد يكون ظاهره شرعيًا، وواقعه ليس كذلك كمن يطلب من جميع الناس التبرع لمشروع دعوي يرى أهميته مبلغًا معينًا، أو يطلب من الجميع النفرة إلى الجهاد في مكان ما، ويؤثم الآخرين، ومثل هؤلاء قد يقعون في الإثم والوزر من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

د- وفي باب الدعوات من تضع أهدافًا غير ممكنة التطبيق فلا مراعاة لإمكانات الأفراد، ولا مراعاة لإمكانات المجتمع وأوضاعه فيعيش أفراد الدعوة في مجموعة من الخيالات التي تقودهم إلى أعمال خطيرة، ولا فائدة منها، وهذا ظاهر فيمن انتهجوا تكفير المجتمعات فوصلوا إلى تكفيرًا آبائهم وأهليهم، وتعاملوا مع مجتمعاتهم من منطلقات المفاصلة فوقعوا في مشكلات لا تنتهي ولن تنهي إلا بالرجوع للمنهج الحق.

هـ - ومن الأمثلة تحميل الصغار مسؤولية الكبار في الدعوة، تحميل

---

[41]() المفهم للقرطبي: (3/172).

[42]() إعلام الموقعين: (4/204، 205).

غير المختصين في الشريعة مسؤولية علماء الشريعة فانحرفت الدعوة عن مسارها، ولم تثمر ثمارها، فاختلفت مواقفها الدعوية.

العلم بواقع المدعوين مطلب أساس في الدعوة:

يجب على الداعية أن يتعرف على واقع المدعوين، وعلى ظروفهم المحيطة بهم، ومتطلبات الزمان الذين يعيشون فيه، والمكان الذي ينتسبون إليه.

يقول الإمام ابن القيم : مبينًا أهمية معرفة المفتي – وأقول وكذا الداعية – بواقع الناس: «معرفة الناس أصل عظيم يحتاج إليه المفتي والحاكم.. وإلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح، فإنه إذا لم يكن فقيهًا في الأمر له معرفة بالناس تصور له الظالم بصورة المظلوم وعكسه... بل ينبغي أن يكون فقيهًا في معرفة مكر الناس وخداعهم واحتيالهم وعوائدهم وعرفياتهم، فإن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعوائد والأحوال، وذلك كله من دين الله» (43).

وقال أيضًا: «ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والإمارات والعلامات حتى يحيط به علمًا.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع.

ثم يطبق أحدهما على الآخر، فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجرًا، فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله،... ومن تأمل الشريعة وقضايا الصحابة وجدها طافحة بهذا، ومن سلك غير هذا أضاع على الناس حقوقهم، ونسبة إلى الشريعة التي بعث الله بها رسوله» (44).

إن الانطلاق من تصور صحيح واقعي لأحوال الناس وظروفهم، ومعرفة صحيحة لما يريده الله منهم، يجعل المسلم بعامة، والداعية بخاصة موفقًا في خطابه مثمرًا في دعواته. وكذا الدعوة في منهاجها العام.

43() إعلام الموقعين: (4/ 204-205).

44() إعلام الموقعين: (1/69).

النتائج المترتبة على مخالفة هذه القاعدة:

إن بعض الدعاة يقفز على الواقع الذي تعيشه الأمة، فهو يريد كمالًا في الإيمان فلا أحد يعصى، وكمالًا في التعبد فلا أحد يقصر، وكمالًا في الفهم فلا خلاف في الاجتهاد، وكمالًا في الأخلاق فلا أحد يخطئ.

إن مثل الذين يطلبون المثالية بعيدين عن الواقعية، كمثل من يطلب زوجة مثالية في جمالها، مثالية في أخلاقها ودينها، مثالية في تصرفاتها، مثالية في ثقافتها... إنه سيبقى أبد الدهر عازبًا.

وإن تزوج فليصدمن، فإما أن يصبر، وإما أن يطلق، وسيبقى في خيال وعذاب، وقصر وتقصير، قصر نظر في رؤيته، وتقصير في عمله.

إن عدم واقعية بعض دعاتنا، جرّ عليهم وعلى المسلمين مشكلات كثيرة، ومصائب جسيمة، وتقصيرًا في الأداء، ثم عجزا وفشلا في الدعوة إلى الله.

إن الذي يظن أن يحكم بعد أبي بكر وعمر م بمثلهما فلينتظر؟ وليس ببالغ أمره.

وإن الذي يدعو قومًا يريد أن يكونوا كالصحابة في الإيمان والعمل.. لن يحصد إلا الخيبة والفشل.

وإن الذين يطلبون الكمال في الدعوة، كالمنبت لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى.

إن من المعلوم في دين الله، أن الله لم يوجب الكمال على العباد، فهو عزّ وجل جبل الناس على التقصير.

فعن أبي هريرة ط، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم» ([45]).

إن تعامل الداعية مع نفسه، وتعامل الدعوة مع الناس من منطلق المحاسبة على التقصير عن الكمال، ومن منطلق الوصول إلى المثالية جرّ على المسلمين بعامة وعلى الدعوة والدعاة بخاصة عبر تاريخهم

---

[45]() أخرجه مسلم: (4/2106رقم2749)، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار والتوبة.

وواقعهم ويلات كثيرة، ومصائب جسيمة، من نقض البيعات إلى اتهام العلماء المسلمين، بل وقتلهم، وتدمير منشآتهم، كما جرّ اضطرابًا في الأفهام، وانحرافًا في فهم الشريعة، وارتباكًا في المناهج الدعوية، وفتورًا في الدعوة، وانتكاسًا لكثير من أفرادها، ويأسًا من النجاح، وقنوطًا من رحمة الله، وربما تقدمًا نحو الشر والضلال.

والخلاصة لما سبق:

إن من الخير أن يتعامل الداعية في ضوء واقعه وواقع مجتمعه، ويبنى منهاجه الدعوي، ويخطط لمسيرته الدعوية، ويرسم أهدافه في ضوء ما سبق بيانه من الواقعية في جميع جوانبها، يرنوا إلى المثالية ولكن يسير في ضوء الواقع.

ومن الخير للمؤسسات الدعوية ودورها أن تبنى منهاجها الدعوي ومواقفها على هذا المعلم المهم.

ولعلّ من أهم أبواب المراجعة للدعوات هذا المعلم الخطير، فيعاد النظر في ضوء فقهه وفهمه وتبني البرامج عليه، هكذا كلفنا الله تعالى، ولم يحملنا ما نطيق. فإذا كان سبحانه جعل التشريع حسب الطاقة، فالدعوة من باب أولى.

كما لا يعني هذا: الركود والاستسلام للهوى، ورغبات النفس، بحجة الواقعية في الفهم والطرح وعدم المثالية.

كما لا يعني الوقوف أمام العقبات بدون معالجة أو مراجعة، وفي كل ذلك يرجى الأجر وبلوغ الآمال.

وكما لا يعني التساهل في أحكام الشرع، وتمييعها، بل يجب أن تبنى على الدليل الشرعي وفقهه.

فهذه القاعدة تتكامل مع غيرها.

□□□□□

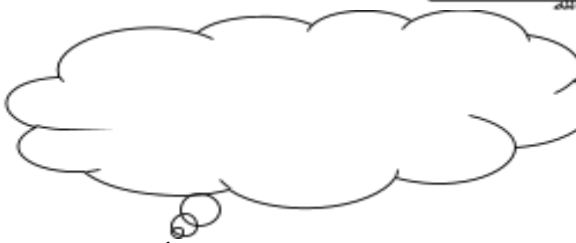

القاعدة الـ
العناية بالكل

مدخل : (إن معرفة مراتب الأعمال ووضعها في مواضعها أمر على جانب كبير من الأهمية، ينبغي أن يراعيه الداعي في دعوته حتى ينفع وينتفع به).

الدين مراتب ودرجات:

من حكمة الله تعالى أن جعل تكاليف هذا الدين على درجات، فجعل للدين أصولًا يُبنى عليها، وهي الأركان، وشرع أمورًا لا بد منها للاستفادة من هذا البناء، وهي الواجبات، وشرع أمورًا تحسينية يكمل بها البناء، ويجبر ما عسى أن يكون فيه من نقص، وهي المستحبات، وحرم على المسلم ما يضر بهذا البناء ويعيبه وهي المحرمات، ونهاه عما يؤثر على كماله، وهي المكروهات.

وجعل لكل درجة من هذه الدرجات منزلة من الدين بحيث توضع في مكانها من الأهمية، وهذا ما ينبغي مراعاته في الدعوة.

البدء بالتوحيد أساس الدعوات جميعًا:

العقيدة هي أساس هذا الدين والشريعة هي البناء، ولا بناء من غير أساس، ولا عمل من غير توحيد وإخلاص، قال تعالى:

[الفرقان: 23].

وقال تعالى:

[الزمر: 65].

وقد كانت الدعوة إلى التوحيد عند الرسل جميعًا – عليهم الصلاة والسلام - هي أولى الأولويات، وأهم المهمات وكلهم كان نداؤهم:

[هود:50]، ومن منطلق العقيدة والإيمان سعوًا إلى علاج الانحرافات الواقعة في مجتمعاتهم كل بحسبه.

فموسى عليه السلام عالج الطغيان السياسي الفرعوني وما ترتب عليه من إذلال الناس واستعبادهم على أساس الإيمان.

ولوط عليه السلام عالج الانحراف الخلقي والشذوذ الجنسي في قومه على أساس الإيمان، وشعيب عليه السلام عالج الانحراف الاقتصادي وأكل أموال الناس بالباطل على أساس العقيدة والتوحيد، وهكذا سائر الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ولقد كان نبينا محمد ﷺ في دعوته إلى هذا الدين يدعو أولًا إلى الإيمان والتوحيد حتى ينمو بناء الإيمان، فإذا قام البناء قويًا بأركانه سهل بعد ذلك إكماله.

روى البخاري من حديث ابن عباس م قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ ابن جبل حين بعثه إلى اليمن: «إنك ستأتي قومًا أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»[46].

والدعاة عليهم أن يسلكوا سبيل رسول الله ﷺ في الدعوة وأن يتقنوا أثره بادئين بالأهم فالمهم.

يقول فضيلة الشيخ صالح الفوزان: «فالتدرج في الدعوة معناه: الإتيان بالأهم فالأهم. وذلك بأن يبدأ أول شيء بالتوحيد: دعوة الناس إلى التوحيد وعبادة الله وحده ، لأن هذا هو الأساس».

وهذا الأمر ينبغي أن يفهم فهمًا صحيحًا، وأن يطبق تطبيقًا سليمًا من غير إفراط ولا تفريط، فالمراد بالبدء بالعقيدة التركيز على أصولها وأركانها وهو ما يجب على المكلف اعتقاده، إذ يجب عليه «أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره»، وما أمر به الرسول ونهى، بحيث يقر بجميع ما أخبر به، وما أمر به فلابد من تصديقه والانقياد له فيما يأمر.

---

[46]() أخرجه البخاري: (2/159رقم1496)، كتاب الزكاة، باب (63).

وأما التفصيل فعلى كل مكلف أن يقر بما ثبت عنده من أن الرسول ﷺ أخبر به وأمر به، وأما ما أخبر به الرسول ولم يبلغه أنه أخبر به ولم يمكنه العلم بذلك فهو لا يعاقب على ترك الإقرار به مفصلًا وهو داخل في إقراره بالمجمل العام، ثم إن قال بخلاف ذلك متأولًا ولا كان مخطئًا يغفر له خطؤه، إذا لم يحصل منه تفريط ولا عدوان، ولهذا يجب على العلماء من الاعتقاد مالا يجب على من نشأ بدار جهل[47]، وبالتالي فإن الداعية إذا علم الناس أصول الإيمان على الإجمال أو وجدهم بها عالمين كان الأولى به أن يركز لهم مقتضيات الإيمان وآثاره وربط ذلك بواقع حياتهم، وهذا أجدى وأنفع من المضي بهم إلى مزيد من المسائل والفورع التي لا يحتاجها إلا طلبة العلم، بل ربما المتخصصين منهم[48].

ثم تكون الدعوة إلى الواجبات بنسب متكافئة بحيث لا يكون التركيز على الواجبات الظاهرة مثلًا كصلاة الجماعة وإعفاء اللحى وتقصير الثياب فوق الكعبين، بحيث تهمل الواجبات الأخرى كبر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الجيران وإتقان العمل الذي يكون الإنسان مسؤولًا عنه.

إن التكاليف الشرعية لبنات متعددة يقوم بها البناء، فإذا كان التركيز على لبنات معينة فإن جزءًا من البناء يكون قويًا متماسكًا، وأجزاء منه تكون ضعيفة متهافتة.

التدرج في الدعوة إلى الشريعة أمر تقتضيه الدعوة:

الشريعة الإسلامية جاءت على أساس مراعاة مصالح الناس ودفع المفاسد عنهم، فاقتضت هذه المراعاة التدرج في الدعوة إلى هذه الشريعة، يقول فضيلة الشيخ صالح الفوزان: «هذا التدرج باق عند الحاجة إليه ، ولا شك أن الشارع تدرج في تشريع الأحكام رحمة بالناس، وترغيبا لهم في القبول، ومن ذلك تدرجه في شريعة الصيام، وتدرجه في تحريم الخمر، وذلك من أجل الرحمة بالناس وعدم المشقة عليهم، وهذا التدرج مطلوب عند الحاجة إليه في كل زمان» [49].

فالقاعدة إذًا في الدعوة إلى الشريعة مراعاة حال الدعوة والمدعو

---

[47]() مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (3/328-327).
[48]() انظر: مقومات الداعية الناجح: ص: (96).
[49]() المرجع السابق.

زمانًا ومكانًا، فإذا كان المدعو مسلمًا فإن المصلحة تقتضي إلزامه بأحكام الشريعة جملة دون تدرج.

يقول فضيلة الشيخ محمد العثيمين مبينًا عدم التدرج في دعوة المسلمين إلى العمل بأحكام الشريعة: مثلًا الخمر، لا نقول: أولا نرغب الناس في تركها ، ثم نحاولهم أن يتركوها أوقات الصلاة ، بل نقول لهم : هي حرام ، وندعوهم بالتي هي أحسن فننظر إلى حالهم وندعوهم على حسب حالهم.

ويقول فضيلة الشيخ صالح الفوزان: «فإذا كان الذي يشرب الخمر يعلم أنه محرم ، ويعلم الوعيد فهذا لا يحتاج إلى تدرج ، لأنه يعلم هذا ، وإنما يجب نهيه وزجره وإقامة الحد عليه ، لأنه دخل في هذا الأمر وهو يعرف»([50]).

وتقتضي الحكمة في دعوة المسلمين إلى بعض أمور الشريعة في هذا العصر مراعاة جانب مهم وهو تأخير إنكار المنكر إذا اقتضت حاجة الدعوة ذلك.

يقول فضيلة الشيخ محمد العثيمين: «تأخير إنكار المنكر قد يكون من باب استعمال الحكمة في الدعوة إلى الله، فقد يكون هذا الرجل الفاعل للمنكر لا يناسب أن ننكر عليه في هذا الوقت بالذات، لكن سأحتفظ لنفسي بحق الإنكار عليه، ودعوته إلى الحق في وقت يكون أنسب، وهذا في الحقيقة طريق صحيح، فإن هذا الدين كما نعلم جميعا بدأ بالتدرج شيئًا فشيئًا، فأقر الناس على ما كانوا يفعلونه من أمور كانت في النهاية حرامًا من أجل المصلحة، فهذه الخمر مثلًا بين الله تعالى لعباده أن فيها إثمًا كبيرًا ومنافع للناس، وأن إثمها أكبر من نفعها، وبقي الناس عليها حتى نزلت آخر آية فيها تحرمها بتاتا، فإذا رأى إنسان من المصلحة أن لا يدعو هذا الرجل في هذا الوقت، أو في هذا المكان، ويؤخر دعوته في وقت آخر، أو في مكان آخر لأنه يرى أن ذلك أصلح أو أنفع ، فهذا لا بأس به»([51]).

أما إذا كان المدعو كافرًا فإنه يلزم التدرج في دعوته إلى الشريعة فيدعى أولًا إلى أصل الإسلام، ثم بعد ذلك نأمره بالصلاة، ثم بالزكاة،

---

[50]() المرجع السابق.

[51]() الصحوة الإسلامية، ضوابط وتوجيهات: ص: (121).

ثم الصوم، ثم الحج كما جاء في حديث بعث معاذ السابق.

ولو اشترط هذا الصنف من المدعوين ارتكاب بعض المخالفات الشرعية مقابل إسلامه، مثل شرب الخمر مثلًا، فإنه يتعامل معه وفق القاعدة الفقهية: «إذا تزاحمت المفاسد واضطر إلى واحد منها قدم الأخف منها» (52).

فيقبل إسلامه ويقبل شرطه.

يقول سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز: «لا أعلم مانعا، لأن شرب الخمر أسهل من بقائه على الكفر، يبين له التحريم، ويدعو له بالتوفيق، أنت إذا أسلمت إن شاء الله سوف تتركه فإن هذا خير من بقائه على الكفر».

على الدعاة مراعاة الأولويات:

المراد بمراعاة الأولويات معرفة مراتب الأعمال ووضعها في مواضعها، فإن المنهج الإسلامي قد جعل لكل عمل قدرًا، فإماطة الأذى وإن كانت من الإيمان فإنها في الرتبة الدنيا كما قال صلى الله عليه وسلم : «الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها: لا إله إلا الله، وأدناه: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» (53).

«ولا إله إلا الله» يقاتل لأجلها كما أخبر الرسول الكريم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»(54) وإماطة الأذى لا يمكن أن تكون سببًا لقتال بل هي دون ذلك بكثير ويكفي فيها نصح ووعظ، ولا يمكن المساواة بينهما ، في الدعوة إليهما والبذل في سبيل تحقيقهما.

وهذا ظاهر في بيان تفاوت عدد من الأعمال فيما تضمنه قوله تعالى:

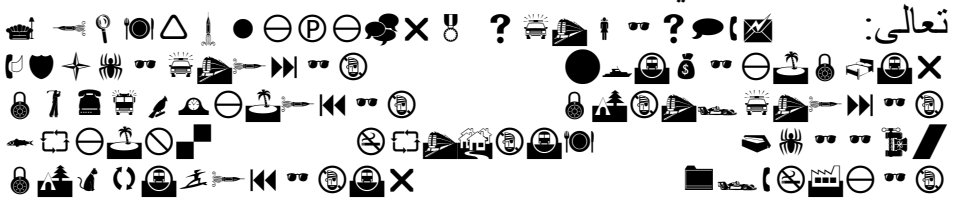

52() القواعد والأصول الجامعة لا بن سعدي، ص: (78)، وسبق تفصيل شيء من هذا.

53() أخرجه البخاري: (1/9رقم9)، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، ومسلم: (1/63رقم35)، كتاب الإيمان، باب بيان شعب الإيمان.

54() أخرجه البخاري: (1/13رقم25)، كتاب الإيمان، باب من قال الإيمان هو العمل، ومسلم: (1/51رقم20)، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله.

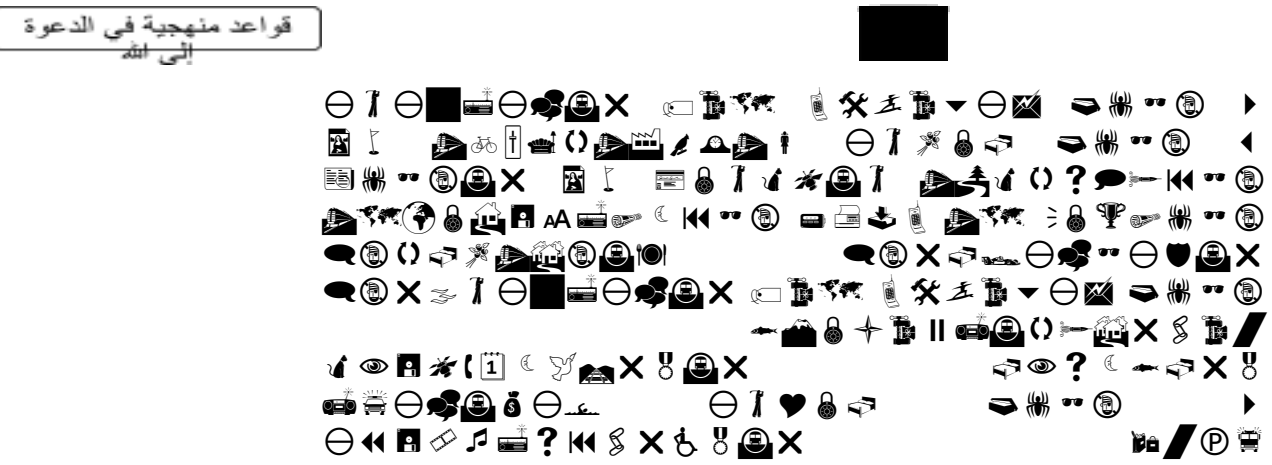

[التوبة : 19 – 20].

ولا بد للداعي أن يعلم أن الأصول لا بد أن تقدم على الفروع، والفروض تقدم على النوافل، وفروض الأعيان مقدمة على فروض الكفايات، وفروض الكفايات التي فيها عجز ظاهر أولى من التي انتدب لها غيره من المسلمين.

اتجاهان للتأمل:

وقبل أن نختم هذه الكلمات أشير إلى اتجاهين في الدعوة مما يتعلق في القضايا الكلية والجزئية يحسن تأملهما، والنظر فيهما بعد أن تقرر أن الدين مراتب وتراعى فيها الأولويات:

الاتجاه الأول: ينظر هذا الاتجاه إلى أن يركز العمل الدعوي على القضايا الكبرى، التي تهم عامة المسلمين مثل قضايا الاعتداءات على المسلمين، وعلى وحدة المسلمين، وعلى الغزو اليهودي والصليبي، وعلى مشكلات العالم الإسلامي في تفرقه، وعلى المذاهب الإلحادية، والعلمانية، وعلى المشكلات الاقتصادية وغيرها.

وغالبًا ما يسفّه هذا الاتجاه النظر للقضايا العقدية، والسلوكية، والأخلاقية وبخاصة إذا كان من عمل الأفراد وأخطائهم.

ويحتج هذا الاتجاه بأن النظر في هذه القضايا الجزئية – كما ينظر إليها – يعطل النظر في تلك القضايا الكبرى، ومن ثم يكون عاملًا من عوامل تأخير المسلمين عن ركب الحضارة، ولا تؤتى الدعوة ثمارها.

ولذلك نجد هذا الاتجاه يركز – غالبًا – على القضايا السياسية العامة، ولا يراعى القضايا العقدية، والأخلاقية، والسلوكية.

الاتجاه الثاني: وهو عكس الاتجاه الأول، فهو يركز نظرته إلى قضايا الفرد، العقدية، والأخلاقية، ويهتم بها، ويعيش لنشر الصحيح منها، وينكر المخالف منها. دون النظر إلى تلك القضايا التي نظر إليها الاتجاه الأول، أو يجعلها على الأقل في درجة تالية.

وطبيعة هذا الاتجاه أيضًا يخطئ ذلك المنهج، وينظر إليه على أنه منهج منحرف، أخطأ الطريق، وجانب الصواب.

منهج الإسلام تجاه الاتجاهين:

ولعل النظرة الصواب – بعد التأمل فيما سبق من التنظير في الأولويات- أن نتمعن في سيرة النبي ﷺ ودعوته سواء في مكة أو بعد هجرته إلى المدينة.

كما نتمعن ونتأمل في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية وبشيء من هذا التأمل يظهر ما يلي:

1 – أن الإسلام عقيدة واضحة، عبادات ومعاملات، وأخلاق وشمائل في دائرة متكاملة، فالإسلام ليس عقيدة فحسب، أو عبادة مباشرة فقط، أو معاملة منفصلة عن العقيدة.

2 – ولذلك نجد في الإسلام نظامًا اجتماعيًا، ونظامًا اقتصاديًا، ونظامًا أخلاقيًا، ونظامًا سياسيًا، تنبع كلها من عقيدة الإيمان بالله جل وعلا.

3 – وكما ينظر الإسلام في تشريعه إلى صلاح الفرد، فهو ينظر كذلك إلى صلاح الأسرة، والمجتمع، والدولة، كل ذلك بنظرة شمولية يكمل بعضها بعضًا.

4 – وكما ينظر أيضًا إلى النظرة القريبة (الأقربين) بمنظار قريب فهو ينظر أيضًا إلى المسلمين بمنظار مماثل لكن بدرجة تلي الأقربين.

5 – وينبني على ذلك: الدعوة إلى الله جل وعلا الذي يجب أن تعطي الدعاة النظر إلى مجموع هذه القضايا، ليضعوا الأشياء في مواضعها، وتبنى المناهج الدعوية على هذه النظرة الشمولية التي يتفرع عنها العناية بالكل، والمجموع، والعناية بالجزء، والفرد.

ومن ذلك:

أ – الدعوة إلى إصلاح الفرد والأسرة، من جميع جوانب الإصلاح،

وتبنى برامج لذلك، وتتخصص مؤسسات وهيئات ودعاة لذلك.

ب – الدعوة إلى تقويم ما اعوج من السلوك العام، سواء كان عقديًا، أو عباديًا، أو أخلاقيًا، أو ماليًا أو غيرها، وتبنى برامج لذلك.

ج – الدعوة إلى إصلاح المؤسسات وأنظمتها وتعاملها مع الناس، وتبنى البرامج في ذلك. ويتخصص لها دعاة ومصلحون.

د – الدعوة إلى الاهتمام بقضايا المسلمين بعامة، وعدم التهوين من شأنها، أو إلغاء غيرها، وأن تأخذ حظها في الأولويات، ويتخصص لها مختصون، وهكذا، ومحصلته:

- كما يعتني بكليات الدين، وكبرى القضايا يعتنى بجزئيات الدين.
- وكما يعتني بإصلاح الأوضاع يعتنى بإصلاح الأفراد.

هذه هي النظرة التكاملية، التي تدعو إلى: أن يسير الاتجاهان في خطوط متوازية وليس في خطوط متعارضة، وكلها دعوة لله عزَّ وجل ولا ينبني على ذلك التفاضل عند الله تعالى فهذا يخضع لعوامل أخرى وليس عائدًا لمجرد نوعية العمل فحسب.

□□□□□

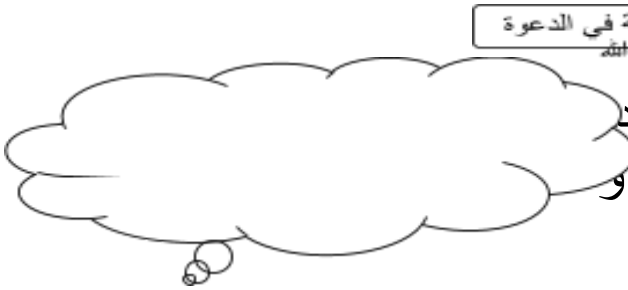

القاعدة الحاد
في الائتلاف و

مدخل: (الائتلاف والاجتماع خير ورحمة، والفرقة والاختلاف شر ونقمة، والداعية الناجح من يجمع ولا يفرق، ويأخذ بسبيل الائتلاف لا بسبل الاختلاف).

معنى الائتلاف:

الائتلاف لغة: مأخوذ من مادة (أ ل ف) التي تدل على انضمام الشيء إلى الشيء، فكل شيء ضممت بعضه إلى بعض فقد ألفته تأليفًا.

والائتلاف اصطلاحًا: اتفاق الآراء في المعاونة على تدبير المعاش.

وقال التهانوي: الألفة -بالضم- هي ميلان القلب إلى المألوف[55].

معنى الاختلاف:

الاختلاف في اللغة: يعني عدم الاتفاق على الشيء بأن يأخذ كل واحد طريقًا غير طريق الآخرين في حاله أو أقواله أو رأيه.

والاختلاف اصطلاحًا: يعني الاختلاف في الآراء والنحل والأديان والمعتقدات بما يسعد الإنسان به أو يشقى في الآخرة والدنيا [56].

الائتلاف والاجتماع وعدم التفرق والاختلاف فريضة شرعية:

الاتحاد والألفة، واجتماع القلوب، والتئام الصفوف، والبعد عن الاختلاف والفرقة وكل ما يمزق الجماعة أو يفرق الكلمة، من العداوة الظاهرة، أو البغضاء الباطنة، ويؤدي إلى فساد ذات البين، مما يوهن دين الأمة ودنياها جميعًا، مقصد شرعي من مقاصد الشريعة العظمى التي دلت عليها الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية.

فلا يوجد دين دعا إلى الأخوة التي تتجسد في الاتحاد والتضامن، والتساند والتآلف، والتعاون والتكاتف، وحذر من التفرق والاختلاف

---

[55]() كشاف اصطلاحات الفنون (1/114)، نضرة النعيم (1/495).

[56]() انظر: الموافقات (4/144،110).

والتعادي، مثل الإسلام كما هو جاء في النصوص الشرعية والنبوية.

ومن هنا يتوجب استحضار هذا المقصد العظيم، ويجعله الدعاة من أسس الدعوة ودعائمها ومقاصدها العظيمة الكبرى.

من توجيهات القرآن إلى الائتلاف وعدم الاختلاف:

يقول الله تعالى:

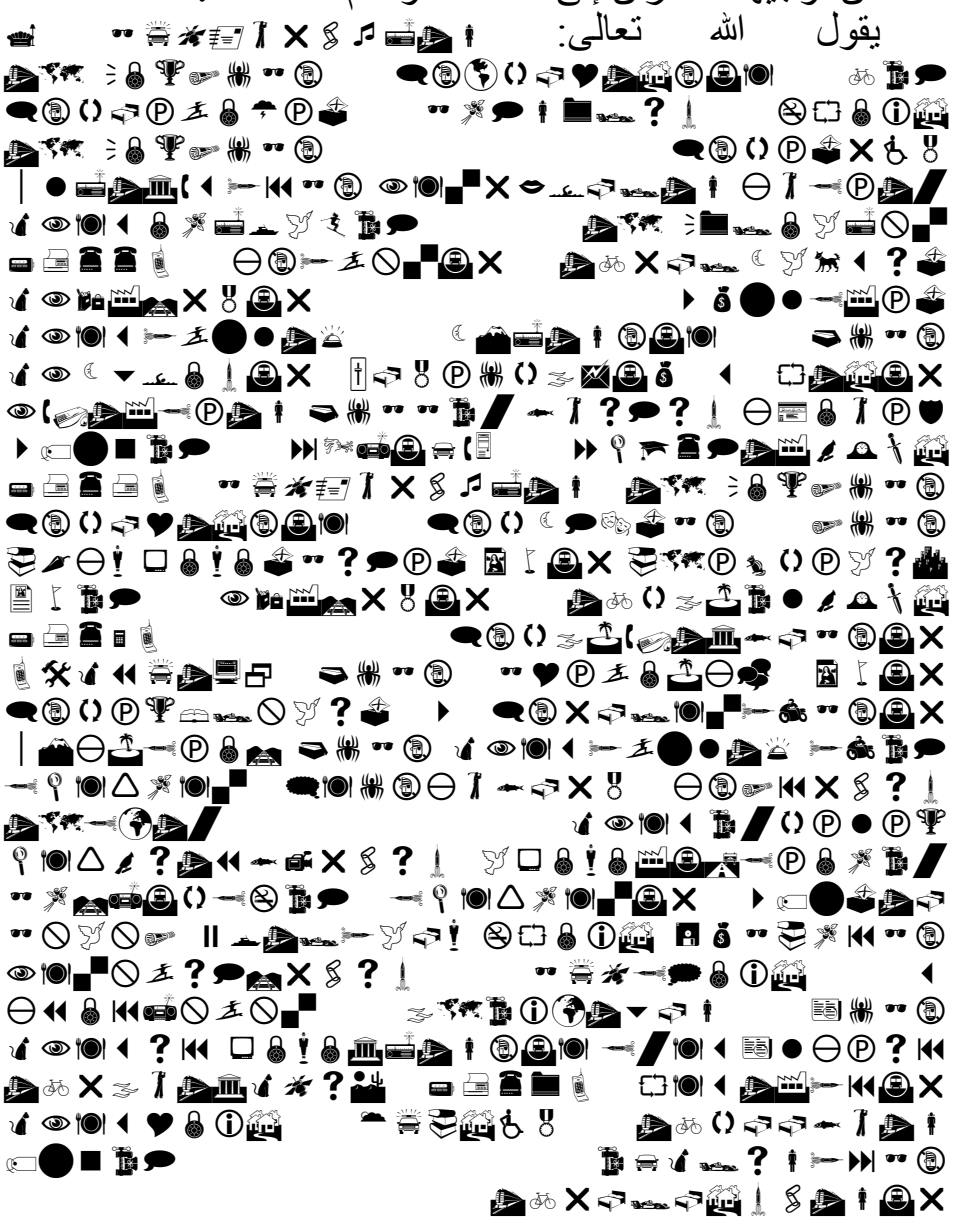

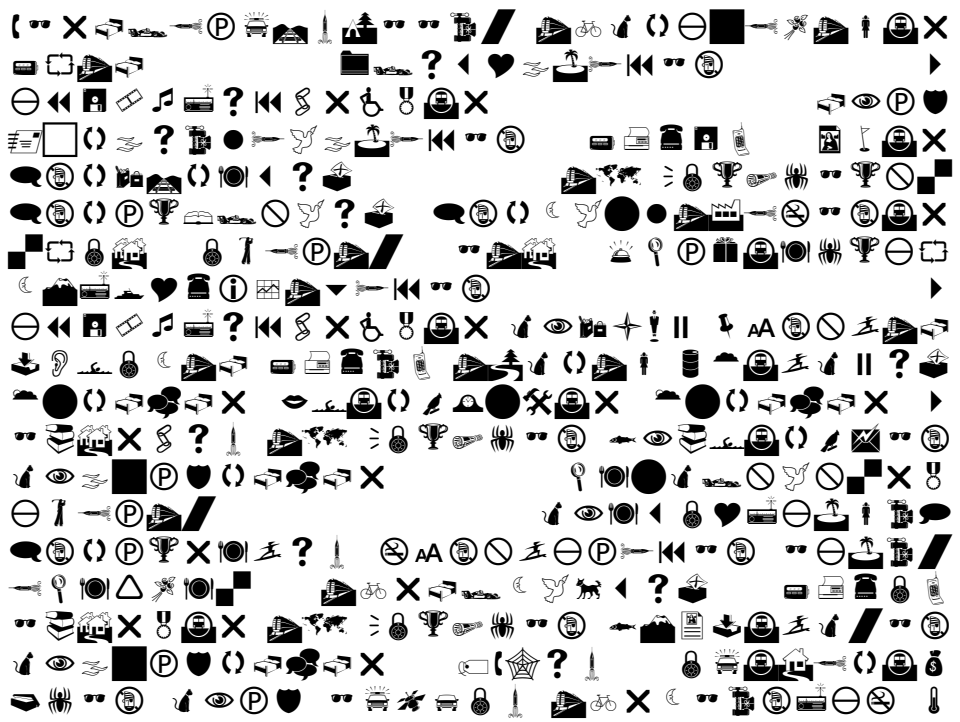

[آل عمران: 100 – 107].

أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال: مر شاس بن قيس -وكان شيخا قد عسا (أي كبر) في الجاهلية، عظيم الكفر، شديد الضِّعن على المسلمين شديد الحسد لهم- على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة -يعني الأنصار الأوس والخزرج- بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شابا من يهود وكان معه فقال له: اعمد إليهم فاجلس معهم فذكرهم يوم بعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل، فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب فتقاولا، وقال بعضهم لبعض: إن شئتم رددناها الآن جذعة، وغضب الفريقان وقالوا: قد فعلنا السلاح السلاح موعدكم الحرة فخرجوا إليها وتحاوز الناس على

دعواهم التي كانت في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين الله الله.. أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا؟! فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس، وأنزل الله في أن شأن بن قيس وما صنع: [illegible] [آل عمران: 98 – 99]، وأنزل في أوس بن يقضي وجبار بن صخر، ومن كان معهما من قومهما، الذين صنعوا ما صنعوا: [illegible] إلى قوله: (وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)(57).

والآيات الكريمة وما ورد فيها من سبب نزول دعوة واضحة إلى توحيد الكلمة، واجتماع الصف على الدين، وقد تضمنت:

1- التحذير من دسائس غير المسلمين، ومن طاعتهم فيما يوسوسون به، فليس وراءها إلا الارتداد على الأعقاب، والكفر بعد الإيمان .

2-التعبير عن الاتحاد بالإيمان، وعن التفرق بالكفر، فإن معنى:

---

(57) سيرة ابن هشام (1/555،556)، وتفسير ابن جرير (5/627،629)، وتفسير ابن أبي حاتم: (3/718،720)، وابن المنذر (759)، والدر المنثور (3/698، 699).

(يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ) أي بعد وحدتكم وأخوَّتكم متفرقين متعادين.

3- إن الاعتصام بحبل الله من الجميع هو أساس الوحدة والتجمع بين المسلمين وحبل الله هو الإسلام والقرآن.

4- التذكير بنعمة الأخوة الإيمانية بعد عداوات الجاهلية وحروبها، وهي أعظم النعم بعد الإيمان قال تعالى: [الأنفال: 63].

5- لا يجمع الأمة أمر مثل أن يكون لها هدف كبير تعيش له، ورسالة عليا تعمل من أجلها، وليس هناك هدف أو رسالة للأمة الإسلامية أكبر ولا أرفع من الدعوة إلى الخير الذي جاء به الإسلام، وهذا سرُّ قوله تعالى في هذا السياق، قال تعالى:

6 – التاريخ سجِّلُ العبرَ، والواعِظُ الصامتُ للبشر، وقد سجَّلَ التاريخُ أنّ مَن قَبْلَنا تَفَرّقوا واختلفوا في الدين فهلكوا، ولم يكن لهم عذرٌ، لأنهم اختلفوا بعد ما جاءهم العلم ، وجاءتهم البينات من ربهم، ومِن هنا كان التحذيرُ الإلهي:

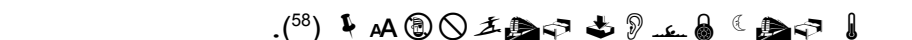

.([58])

هذا وقد أكّد القرآنُ أنّ المسلمين - وإن اختلفت أجناسهم وألوانهم، وأوطانهم ولغاتهم وطبقاتهم - أمةٌ واحدة، وهم الأمّةُ الذين جعلهم الله وسطًا: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ).

وجاءت الآياتُ بَعْدَ هذه الآيةِ تُقِيمُ سيّاجًا مِنَ الآداب والفضائل الأخلاقية، يحمي الأُخُوَّةَ مما يضعِفُها ويؤذِيها، مِنَ السُّخرية، واللَّمْز، والتنابُز بالألقاب، وسوءِ الظنِّ، والتجسُّس، والغيبة، قال تعالى:

[الحجرات: 11-12].

وحذّر القرآنُ من التفرُّق والتنازع والاختلاف أيّما تحذير، ومِن ذلك قوله تعالى:

([58]) الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم: ص: (22-23).

[الأنفال: 46].

إن الناس إذا لم يجمعهم الحق شعبهم الباطل، وإذا لم يستهويهم نعيم الآخرة تخاصموا على متاع الدنيا، ولهذا كان التنازع والتطاحن المر من خصائص الجاهلية المظلمة وديدن من لا إيمان لهم.

يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقابَ بعض» ([59]).

يعني أن هذا العراك الدامي هو شأن الكافرين المنقسمين على أنفسهم أحزابًا متنافرة، لقد تلقى المسلمون في أحد درسًا مؤلمًا أفقدهم من رجالهم سبعين بطلًا، ورجعوا إلى المدينة وهم يعانون من آلام الجراحات، ولم ذلك؟ مع أن إيمانهم بالله ودفاعهم عن الحق كانا يرشحانهم للفوز المبين، ذلك لأنهم تنازعوا وانقسموا وعصوا أمر الله ورسوله، قال تعالى: [آل عمران: 152].

والإسلام حريص على سلامة أمته، وحفظ كيانها، وهو لذلك يطفئ بقوة بوادر الخلاف، ويهيب بالأفراد كافة أن يتكاتفوا على إخراج الأمة من ورطات الشقاق «يد الله مع الجماعة، ومَن شذ شذ في النار»([60])، وأعداءُ الإسلام يودّون أن يضعوا أيديهم على شخص واحد؛ ليكون طرفًا ناتئًا يستمسكون منه، ويجذبون الأُمَّة كلها عن طريقه، فلا جَرَم حينئذ أن يستأصل هذا النتوء؛ لينجي الجماعة كلها

---

[59]() أخرجه البخاري: (9/63رقم7077)، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «ترجعوا بعدي كفارًا ...».

[60]() أخرجه الترمذي: (4/469رقم2167)، كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة.

من أخطاء بقائه، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ستكون وهنات فمن أراد أن يفرق هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنًا من كان»([61]).

وقال تعالى: [illegible] [الأنعام: 159].

جاء عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في اليهود والنصارى الذين تفرقوا واختلفوا في دينهم.

وجاء عن غيره أنهم أهل البدع، وأهل الشبهات، وأهل الضلالة من هذه الأمة.

قال ابن كثير: «والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفا له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق»، فمن اختلف فيه (وكانوا شيعًا) أي فرقًا كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات، فإن الله تعالى، قد برأ رسول الله صلى الله عليه وسلم، مما هم فيه([62]).

من توجيهات السنة إلى الائتلاف وعدم الاختلاف:

دعت السنة النبوية إلى الجماعة والوحدة، وحذرت من الشذوذ والفرقة، والأحاديث في هذا كثيرة وفيرة، ومنها:

1- روى الترمذي عن ابن عمر قال: خطبنا عمر بالجابية «اسم موضع» فقال: (يا أيها الناس إني قمت فيكم مقام رسول الله فينا، فقال: «أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ...عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، ومن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة») ([63]).

---

[61]() أخرجه مسلم: (3/179رقم1852)، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع.

[62]() تفسير ابن كثير (6/238-240).

[63]() أخرجه الترمذي: (4/465رقم2165)، كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

2- وروي عن ابن عمر أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة ويد الله على الجماعة ومن شذ شذ إلى النار» ([64]).
قال الطيبي: «ويد الله على الجماعة ....» أي: هو ناصرهم ومصيرهم غالبين على من سواهم فينبغي لمن ينتمي لرسول الله ﷺ أن لا يفارقهم ومن فارقهم فقد خلع ربقة الطاعة من عنقه وخرج عن نصرة الله فدخل النار ([65]).
ولقد حذرت السنة النبوية أبلغ التحذير وأشده من الأسباب التي تؤدي إلى الفرقة مثل التباغض والتهاجر، والتشاحن وفساد ذات البين.
3- روى البخاري ومسلم من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاث ليال» ([66]).
4- روى الترمذي عن أبي الدرداء ط قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «إصلاح ذات البين وفساد ذات البين الحالقة»([67])، قال الترمذي: ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين».
بل نجد من كراهية السنة للفرقة والاختلاف أن رسول الله يأمر بالانصراف عن قراءة القرآن إذا خشي من ورائها أن تؤدي إلى الاختلاف.
5- روى البخاري ومسلم من حديث جندب بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم فإذا اختلفتم

---

[64]() سبق تخريجه.
[65]() شرح الطيبي على المشاكاة: (1/271).
[66]() أخرجه البخاري: (8/25رقم6076)، كتاب الأدب، باب الهجرة، ومسلم: (4/1982 رقم2559)، كتاب البر والصلة، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر.
[67]() أخرجه الترمذي: (4/663رقم2509)، أبواب صفة القيامة، باب في فضل صلاح ذات البين، وقال: حديث صحيح.

فقوموا عنه»[68]، أي تفرقوا وانصرفوا لئلا يتمادى بكم الاختلاف إلى الشر.

فرغم ما هو معلوم لكل مسلم من فضل قراءة القرآن، وأن لقارئه بكل حرف عشر حسنات، لم يأذن بقراءته إذا أدت إلى التنازع والاختلاف.

سواء كان الاختلاف: في القراءة وكيفية الأداء، فأمروا أن يتفرقوا عند الاختلاف، ويستمر كل منهم على قراءته، كما ثبت فيما وقع بين عمر وهشام، وبين ابن مسعود وبعض الصحابة ن أجمعين وقال: كلاكما محسن.

أم كان الاختلاف في فهم معانيه، فالمعنى: اقرؤوه وألزموا الائتلاف على ما دل عليه، وقاد إليه، فإذا وقع الاختلاف، أو عرض عارض شبهة تقتضي المنازعة الداعية إلى الافتراق، فاتركوا القراءة وتمسكوا بالمحكم الموجب للألفة، وأعرضوا عن المتشابه المؤدي إلى الفرقة[69]، وهو كقوله في الحديث الآخر: «فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فاحذروهم»[70].

وفي هذه الأحاديث ـ كما قال الحافظ ابن حجر ـ الحض على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة والاختلاف، والنهي عن المراء في القرآن بغير حق[71].

إن الاجتماع وعدم التفرق مقصد سامٍ من المقاصد الشرعية، ومن هنا عظم أمر الإجماع في الشريعة وجعل مصدرًا من مصادر التشريع بل ومصدر قطعي.

ما يستفاد من الأمر بالائتلاف والنهي عن الاختلاف:

إذا كان الإسلام أمر بالاجتماع والائتلاف ونهى عن التفرقة والاختلاف، فهذا النهي وذاك الأمر يدلان على جملة أمور:

أولًا: أن الاختلاف شيء يمكن وقوعه بين البشر، لأنه لو كان

---

[68]() أخرجه البخاري: (6/244رقم5060)، كتاب فضائل القرآن، باب اقرؤوا القرآن، ومسلم: (4/253رقم6777)، كتاب القدر، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن.

[69]() الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم: ص: (28).

[70]() أخرجه البخاري: (6/42رقم4547)، كتاب التفسير، باب سورة آل عمران، ومسلم: (4/2053رقم2665)، كتاب القدر، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن.

[71]() فتح الباري (9/102-103).

مستحيل الوقوع لما نهى عنه الشرع الإسلامي، ولما طلب من المكلفين تركه وعدم الوقوع فيه، لأن النهي عن إيقاع المستحيل عبث ينزه عنه الشارع الحكيم.

ثانيًا: وإذا كان الاختلاف شيئًا يمكن وقوعه وصدوره عن البشر فإنه أيضًا يمكن توقيه، ويمكن تحصيل ضده وهو الإتقان، لما عرف من أصول الشريعة الإسلامية: لا تكليف إلا بمقدور، أو لا تكليف بمستحيل الاتفاق.

ثالثًا: وإذا كان الاختلاف منهيًا عنه في الشريعة الإسلامية، فهو إذن مذموم، لأن الأصل أن الذم يتبع النهي أو يقترن به إلا ما استثنى.

رابعًا: وإذا كان الاختلاف منهيًا عنه ومذمومًا، فمن وقع فيه أو تلبس به حقت عليه المسؤولية الدينية ولحقه الجزاء، كما هي القاعدة الشرعية في ارتكاب المنهيات[72].

وإذا كان الأمر كذلك فكيف نُقِّوم الاختلافات الموجودة على الساحة الدعوية، وهل كُلها مستساغ مقبول، أم منها ما هو مقبول ومنها ليس بمقبول؟ وعليه فأقول:

الخلاف سنة ربانية:

الخلاف بين البشر سنة ربانية لأن الله تعالى قد خلق الناس مختلفين في ألوانهم وأشكالهم ومعارفهم وقدراتهم ومهاراتهم، وكلها آيات منه جل وعلا: [illegible] [الروم : 22]، ويقول تعالى: [illegible]

[72] () مجموعة بحوث فقهية للدكتور عبد الكريم زيدان: ص: (276).

[المائدة: 48].

إن البشر خلقوا مختلفين، فكل إنسان له شخصيته المستقلة، وتفكيره المتميز، وطابعه المتفرد، يبدو ذلك في مظهره المادي، كما في مخبره المعنوي، فكما ينفرد كل إنسان بصورة وجهه، ونبرة صوته، وبصمة بنانه، ينفرد كذلك بلون تفكيره وميوله وذوقه، ونظرته إلى الأشياء والأشخاص والمواقف والأعمال.

وهذا الاختلاف في صفات البشر، واتجاهاتهم النفسية، يترتب عليه – لا محالة – اختلافهم في الحكم على الأشياء، والمواقف والأعمال، يظهر ذلك في مجال الفقه وفي مجال السياسة وفي مجالات السلوك اليومي والعادي للناس، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم في قول الله تعالى:

[هود 118-119].

فالآية تقرر أن الاختلاف واقع بمشيئة الله الكونية لا راد لها، وما شاء الله كان، كما هو بمشيئة الإنسان الإرادية وعليه فيكون منه ما هو مذموم، ومنه ما هو مقبول.

أنواع الاختلاف:

إذا نظرنا إلى عموم الاختلاف نجد أنه ينقسم قسمين رئيسين هما:

أولًا: الاختلاف المذموم: وهو ما اندرج تحت ما يلي:

1- ما كان سببه البغي واتباع الهوى، وهو الذي ذم الله به اليهود والنصارى من أهل الكتاب وغيرهم، الذين دفعهم حب الدنيا، وحب الذات إلى الاختلاف رغم قيام الحجة، ووضوح المحبة، قال تعالى:

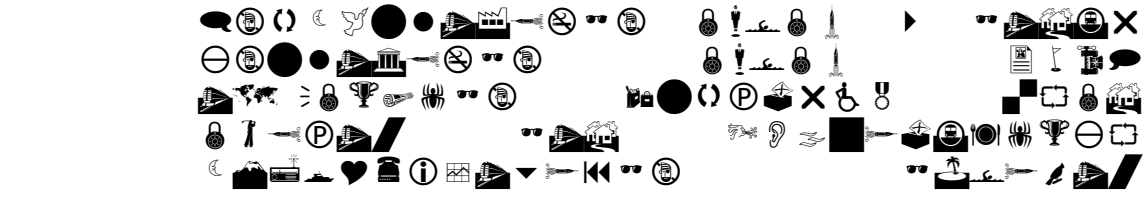

[البقرة: 213].

وقال تعالى:

[آل عمران: 19].

وقال تعالى:

[الجاثية: 16-17].

2- الاختلاف الذي يؤدي إلى تفرق الكلمة، وتعادى الأمة، وتنازع الطوائف ويلبسها شيعًا، ويذيق بعضها بأس بعض.

وهو ما حذر منه القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، أشد تحذير، يقول القرآن بعد الأمر بتقوى الله حق تقاته، والثبات على الإسلام إلى الممات:

[آل عمران: 103].

وفي هذا السياق نفسه يحذر من التفرق كما تفرق الذين قبلنا، فيصيبنا ما أصابهم:

[آل عمران: 105].

وفي موقف آخر يقول:

[الأنفال: 46].

ويذم المشركين والمنحرفين من أهل الكتاب الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا فيقول:

[الأنعام: 159].

3 – الخلاف فيما لا يجوز فيه الخلاف مثل أصول الدين وما علم من الدين بالضرورة، والمجمع عليه، فإشاعة الخلاف في ذلك مذموم، وهو من أسباب التفرق.

ما لا يسوغ الخلاف فيه من مقررات الشريعة:

أما ما لا يسوغ الخلاف ولا يجوز لأحد أن يخرج رأيًا أخر فقد ضبطه أهل العلم بمجموعة ضوابط منها :-

1- ما كان معلومًا من الدين بالضرورة وجوبًا أو تحريمًا، وذلك مثل وجوب الصلاة و الزكاة و الصيام وبر الوالدين و الأمر بالعدل وغيرها من الواجبات وفي المقابل تحريم السرقة و القتل و الاعتداء وشرب الخمر والزنا وغيرها من المحرمات .
2- ما انعقد عليه الإجماع ولم يخالف فيه أحد من أهل العلم ومن هنا ارتفعت مكانة الإجماع إلى أن يصبح مصدرًا من مصادر التشريع وقد حصر أهل العلم كثيرًا من الإجماعات في الكتب.
3- ما كان الخلاف فيه شاذًا أو غير معتبر مما نص عليه أهل العلم، فمن المعلوم أن بعض المسائل قد يخالف عالم لم يبلغه دليل أو حكاية إجماع، أو يفهم فهمًا آخر لدليل آخر أو غير ذلك من الأسباب فهذا الخلاف يسميه أهل العلم خلافًا شاذًا أو خلافًا غير معتبر فمثل هذا لا يعتد به.
4- ومن بدهي الضوابط وأذكرها للتأكيد وهي أصول الدين كأركان الإيمان بالله ومن هنا نقرأ ونسمع ما يردد من أن الثوابت لا يختلف عيها ولا يجوز الخلاف فيها وكلمة: «الثوابت» مصطلح حادث لم يعرف في كتب الخلاف وإن كانت في ظاهرها اللغوي تدل على ما هو أعم من «أصول الدين» لتشمل كل ما ثبت في الشرع أو لا يتغير بتغير الأحوال أو الأزمان أو الأماكن، وقد يقال: لا مشاحة في الاصطلاح وأقول: نعم إذا تبين المصطلح ومدلوله، والمقصود وضوح المصطلح ودلالته.

وبناءً على هذه الضوابط ندرك أن كثيرًا من المسائل التي تطرح –كتابة وإلقاء- لا تقبل الخلاف إذا أن حكمها قد استقر سواء كان في أصول الدين أو فروعه.

فلو أخذت مراتب الدين المبنية على حديث جبريل عليه السلام في سؤاله للنبي ﷺ عن: الإسلام والإيمان والإحسان والساعة لوجدت أن ما لا يجوز فيه الخلاف أكثر مما يسوغ فيه الخلاف فأركان الإسلام وأركان الإيمان وأركان الإحسان وقيام الساعة وعلاماتها لا يسوغ فيها الخلاف وقل مثل ذلك فيما هو أكثر تفصيلًا في داخل كل ركن من الأركان.

والخلاصة: أن من الخير للمسلم أن يدرك أن مساحة ما لا يسوغ

الخلاف فيه مساحته كبيرة جدًا، وهذا يدل على ثبات هذا الدين ورسوخه وعظمه ويسره.

أما ما يجوز فيه الخلاف فهو ما كان غير ذلك مثل فروع الدين التي لا تنطبق عليها تلك الضوابط وهي –ولله الحمد- موجودة مستقرة فيما بين أيدينا من المصادر.

وقد أبحر فيها أهل العلم واختلفوا ورائدهم في ذلك: الإخلاص والظن الحسن والعلم والدليل وجاءت كتب الفقه وشروح الحديث والتفاسير مليئة بذلك.

وهذا الذي تحدث عند بعض أهل العلم في كتب الخلاف وبينوا أصوله وضوابطه و آدابه.

ثانيًا: الخلاف المقبول، وهو:

هو الخلاف الذي يستهدف إيضاح وجه الحق، أو دفع شبهة باطل، أو الوصول إلى إقامة الحجة رغبة في الوصول بالخصم إلى محبة الخير والرشد وهو أمر محمود ولا شك، وصاحبه مطالب به ومأجور عليه.

ولكنه في نفس الوقت محدود بحدود وضوابط دقيقة، تقوم عليها منهجية الدعوة ويلتزمها الدعاة، وهي كما يقول الله تعالى: [النحل: 125]، وكقوله تعالى: [العنكبوت: 46].

وليس أبلغ في ذلك من قوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: [طه: 43 – 44].

وهذا النوع من الاختلاف الذي يستهدف الاتفاق، والتعارض الذي ينشد المودة والحب، والجدل الذي يرغب في الهداية، أمر لا بد من وجوده في كل جماعة خيرة تنشد الحق والعدل، وتطلب السعادة والخير، وترغب في التسامي والقربى.. وما انعدم في أمة إلا عوقبت وخسرت كل عوامل النهوض والبقاء [73].

قال تعالى:

[العصر : 1-3].

ضوابط الخلاف المقبول:

1- أن يبنى على دليل من القرآن أو السنة النبوية أو القواعد الشرعية بما هو مفصل في مظانه.
2- أن يكون من عالم بهذا العلم أو تلك المسألة فلا يجوز أن يخوض فيه من شاء بما شاء ومن ثم يقال: لا مانع من الخلاف فمثل هذا سبيله التعلم فإذا بلغ رتبة الفهم و الاجتهاد و القدرة على الترجيح فله ذلك.
3- أن يكون بإخلاص لله سبحانه وتعالى ومع التحري لإصابة الحق وبالأدب في الخطاب والظن الحسن وغيرها من الآداب وكما يحب المخالف أن يفهمه الآخرون عنه يكون هو كذلك.

منهج الداعية في ضوء هذه القاعدة:

من الخير للداعية أن يستصحب المقصد الأساس وهو التعاون والاجتماع وأن يحرص على البحث عن عوامل الاجتماع، والتأكيد على مفرداتها ومقرراتها.

ومن المسلمات التي يجتمع عليها في هذه الحياة بين المسلمين، وبدون تفصيل:

1- مراتب الدين ثلاثة: الإسلام، والإيمان، والإحسان.
2- أركان الإسلام بما جاءت مفصلة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله

---

[73]() مسائل وقضايا لمحمد قاسم: ص: (47-48).

صلى الله عليه وسلم.

3- أركان الإيمان كذلك بما جاءت مفصلة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.
4- مصادر الشريعة الكبرى ومنها: الكتاب والسنة والإجماع والقياس.
5- قواعد الشريعة المتفق عليها ومنها القواعد الخمس الكبرى.
6- المقاصد الشرعية الكبرى ومنها: حفظ الضرورات الخمس «الدين والعقل والعرض والمال والنسب».
7- العقل مصدر للمعرفة، وبه فضل الإنسان لكن ليس حاكمًا على الدين، فالدين مبني على التلقي والاستسلام.
8- العبادة الصحيحة مبنية على أسس ثلاثة:
   - الإيمان بالله.
   - الإخلاص له.
   - الاقتداء بهدي محمد صلى الله عليه وسلم.
9- الدين مبني على التلقي من الوحي، والاستسلام لله سبحانه وعدم تحكيم الأهواء والمزاج والعقول المجردة.
10- العبادات كالصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة والدعاء والاستغاثة والاستغفار وغيرها توقيفية، لا يعمل بأي منها إلا مبنيًا على دليل من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.
11- الأصل في المعاملات المالية والأطعمة والأشربة الإباحة إلا ما دل الدليل على تحريمه، فبينت الشريعة قواعد ذلك.
12- الأصل في الأبضاع التحريم.
13- من مقاصد الدين: التعامل مع الناس كلهم مؤمنهم وكافرهم بالخلق الكريم، فكل خلق كريم أمر به الشرع، وكل ما يضاده نهى عنه الشرع.
14- الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مقاصد الدين العظمى.
15- الاجتماع على ولي الأمر وعدم الخروج عليه، وطاعته بالمعروف من أهم ركائز سلامة المجتمع وأمنه وتقدمه ورقيه.
16- العلماء الشرعيون هم المبلغون عما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهم العارفون بهما والشارحون لما جاء

فيها.

هذا غيض من فيض وغيرها – ولله الحمد – كثير من مسلمات العقيدة ومسلمات العبادة، ومسلمات التشريع والأخلاق، ومثال ذلك كثير من أحكام الصلاة من شروط وأركان، بل من واجبات: فسجود السهو مثلًا لا يخالف فيه والنقص والشك، وقل مثل ذلك في أحكام الزكاة، والصيام، والحج والعمرة، وقل مثل ذلك في القيم والأخلاق وتفاصيلها.

أقول: هذه المسلمات التي تغيب عن كثير من المسلمين مثقفين ومتعلمين وغير متعلمين، وقد يجهلون شيئًا من التفاصيل فيها، فلكل مقام مقال بحاجة إلى استظهار وجلاء وبيان عند الحديث عن الخلاف.

ولإجلاء الأمر أمثل بمثال يتطرق إليه بعض المتحدثين في مسائل الخلاف عند الكلام عن أحكام الصلاة، فيتحدثون عن كفر تارك الصلاة، ثم يجره الحديث بقصد أو بغير قصد إلى القفز على هذه المسألة متحمسًا لرأي على آخر ومن ثم قد يفهم منه ما لا يراد فهمه.

والذي أدعو إليه – وبخاصة في الحديث مع المجتمع بعامة – قبل الولوج في هذه المسألة وتفصيلها وذكر الخلاف: أن يمهد بالمجمع عليه، والذي يجتمع عليه الجميع، ومن ذلك:

1- ذكر أهمية الصلاة، وخطورة تركها.

2- بيان الإجماع على كفر من تركها جاحدًا لوجوبها.

3- بيان محل الخلاف، وسوقه مع أدلته الشرعية ثم الترجيح مع بيان سببه.

4- بيان ما يترتب على الخلاف من آثار عملية.

هنا تعطى المسألة حقها، ولا أعتقد لمن يسمع ذلك يبقى في نفسه أمر يسوغ له التهاون بالصلاة.

والمهم: وضع الخلاف في موضعه الصحيح فأدى ذكر المجمع عليه آثاره الإيجابية في اعتقاد المسلم وعمله.

وبناء عليه يدرك القارئ أو المستمع أن مساحة المجمع عليه والواضح كبيرة وواسعة، ولا يقفز ذهنه إلى أن ديننا دين الخلاف، فيقع في تردد وتشكك في تعبده لله عز وجل كما يسمع من كثير من العامة في هذا الوقت.

ما يقرب هوة الخلاف:

ومع وقوع الخلاف إلا أن هناك ثمة أمور تعين على تقريب الفجوة بين المتخالفين، ومنها:

1- تجديد الإخلاص لله سبحانه وتعالى في جميع الأقوال و الأعمال.
2- مغالبة النفس في تحري إصابة الحق بدليله ولو خالف الهوى أو الواقع أو غير ذلك.
3- الظن الحسن والتماس المعاذير للمخالف وحمله على المحامل الحسنه مادام أنه يسوغ له الخلاف.
4- اللقاءات العامة، والنقاش الفردي والحوار الجماعي بآدابه وأصوله وتربية النفس على الجدال بالتي هي أحسن.
5- كثرة القراءة والبحث والإطلاع في المسائل المختلف عليها وبخاصة النوازل التي تحتاج إلى مزيد من النظر و القراءة والتأمل.
6- عدم العجلة في الحكم وعدم التسرع في الأحكام على الأقوال أو على مخالفين و أخص مسائل النوازل الكبيرة التي قد تعصف بالناس جراء قول من هذه الأقوال المستعجلة.
7- محاوله علاج الغلبة في النفس وحب الانتصار لقول أو لإيجاد رأي قبل الآخرين.
8- مجانبة الغمز واللمز والتسرع في الاتهام والدخول في المقاصد فإن هذه وأمثالها آفات توصل إلى التفرق المذموم وتوسع مداخل الشيطان.

الآثار المترتبة على مخالفة هذه القاعدة:

إن مخالفة الداعية لهذه القاعدة، وعدم فطنته إلى أسباب الاجتماع، وبعده عن عوامل التفرق يؤدي بالضرورة إلى انقسام الناس والدعاة إلى شيع وأحزاب، وهذا بدوره يؤدي إلى الضعف والاضطراب، وهنا تذهب قوة المسلمين بذهاب وحدتهم وتجمعهم، وبالتالي يتمكن منهم أعداؤهم الذين يتربصون بهم الدوائر، وما الأحداث والوقائع التي تمر بها أمتنا في فترتها الراهنة ببعيدة عن هذا، فكم من مسألة فرعية أثيرت، وكم من قضية شاعت، اختلفت فيها الآراء، وتلاطمت فيها العقول، كل يبغي أن ينتصر لرأيه ولو كان

بالخلاص من الآخرين، والله تعالى يقول: [آل عمران: 105]

والخلاصة:

بعد هذا العرض عن هذه القاعدة المهمة يتلخص لدينا جملة أفكار غاية في الأهمية:

1 – أن الاجتماع وعدم التفرق مقصد من مقاصد الشريعة، يجب العمل له، وعدم التهاون بشأنه.

2 – أن التفرق مذموم يجب الابتعاد عنه.

3 – أن الخلاف ينقسم إلى قسمين، خلاف مذموم وهو ما كان في أصول الشريعة أو مصادرها، أو دافعه الهوى والتعصب، أو في ما كان معلومًا من الدين بالضرورة، أو مجمعًا عليه. وخلاف سائغ ومقبول وهو ما كان في فروع الدين ودلّ عليه دليل من الكتاب أو السنة أو اعتمد على قاعدة شرعية وكان دافعه الوصول إلى الحق.

4 – أن يركز في الدعوة إلى الاجتماع وعدم الفرقة، وأن تشاع العوامل المساعدة في ذلك.

5 – ألا يكون من الأهداف إشاعة الخلاف، ففرق بين أن يكون الخلاف سائغًا أو أن يكون مقصدًا يدعى إليه، فالأول يقبل ويتعامل معه والآخر أصبح هدفًا وهذا غير مراد في الشرع، وهو أمر أحسب أنه في غاية الأهمية، فهو يعالج ما التبس عند كثيرين.

6 – أن على الدعوة ومؤسساتها والدعاة أن يعززوا عوامل الاجتماع، ويقربوا هوة الخلاف، وذلك بتدارس نقاط الخلاف الذي يدعو للفرقة والتشاحن لتقلل مساحته ويعملوا بخط واحد، أو خطوط متوازية لا متنافرة.

7- كما أن عليهم الحذر من إشاعة الخلاف، وعوامله، من الاعتداء بالرأي، واللمز بالمخالف فيما يسوغ فيه الخلاف.

8- إشاعة مبدأ التناصح بأدبه، والحوار الموصل للنتائج الإيجابية، والمساحة للخير واسعة تستوعب الجميع، ولا يعنى هذا السكوت والمجاملة بقدر ما يعنى سعة الأفق وإشاعة التناصح.

□□□□□

القاعدة ا

الموازنة بين ا
أو قل بين

مدخل : (الترغيب والترهيب أسلوب فريد في تهذيب النف واستقامة السلوك، وعامل للإقناع، وللتأثير الإيجابي الكبير، ولذا لزم الجمع بينهما).

والترغيب: هو تشويق الناس إلى ثواب الله والجنة، والترهيب: تخويفهم من عذاب الله ومن النار.

والإنسان بفطرته يميل إلى ما يسبب له اللذة ويتجنب ما يسبب له الألم، ولذلك كان الإنسان ميالًا بطبيعته إلى تعلم ما يجلب له اللذة ويدفع عند الألم.

لم الترغيب والترهيب معًا؟

لما كانت النفوس البشرية مختلفة وصفاتها متنوعة، من: أمارة بالسوء، ومسولة للشر، وموسوسة بالسوء، ولوامة على المعصية ومطمئنة بالإيمان، لزم من ذلك التنوع في الوصف، التنوع في أسلوب الدعوة، فكان الترغيب والترهيب، فالنفوس التي تحب الخير، وتهفوا إلى الهدى، وتشتاق إلى النور، الترغيب يحفزها ويجعلها تسارع في الخيرات، وتسابق إلى الطاعات، وتتنافس في مرضات الله تعالى.

والنفوس التي تلهث وراء الشهوات، وتجري وراء المادة، وتشغف بالمنكر. الترهيب يزجرها ويردعها ويمنعها من الوقوع في أسر الشهوات وبراثن المعصية.

فبالترغيب تطمع النفس وترجو، وبالترهيب تفزع وتخاف وفي هذا سلامتها ونجاتها وربحها وفوزها.

قال الغزالي :: «إن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء، ثقيل الأعباء، محفوفًا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح

والأعضاء إلا أزمة الرجاء، ولا يصد عنه نار الجحيم والعذاب الأليم مع كونه محفوفًا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف» ([74]).

منهج القرآن الكريم والسنة في تقرير هذه القاعدة:

أولاً: الجمع بين الأسلوبين:

1- في القرآن الكريم:

بأسلوب الترغيب والترهيب اهتمامًا بالغًا، فإذا ما ذُكِرت الجنة أتبعها الله سبحانه بذكر النار.. وإذا ما ذكر العذاب.. أتبعه بذكر الرحمة والنعيم، وقد يكون هذا في آيات متتالية وقد يكون في الآية الواحدة.

واهتمام القرآن بإثارة دوافع الناس بترغيبهم في الثواب الذي سيحظى به المؤمنون في نعيم الجنة، إنما يبعث في المسلمين الأمل في الحصول على هذا النعيم، ويدفعهم إلى التمسك بالتقوى، والإخلاص في أداء العبادات، والعمل الصالح، والجهاد في سبيل الله، وعمل ما يرضى الله ورسوله، آملين أن يكونوا من أهل الجنة.

والآيات التي تصف عذاب جهنم تبعث فيهم الرهبة من هذا العذاب الأليم الذي ينتظر الكافرين والمنافقين والعاصين لأوامر الله تعالى، ويدفعهم ذلك إلى الابتعاد عن ارتكاب الذنوب والمعاصي وكل ما يغضب الله ورسوله، آملين أن ينجيهم الله من عذاب جهنم.

وهكذا يكون المسلم متأثرًا بدافعين قويين، الرجاء في رحمة الله يدفعه إلى القيام بالعبادات والتكاليف وكل ما يأمره به الشرع.

والخوف من عذاب الله يدفعه إلى تجنب القيام بالذنوب والمعاصي وكل ما ينهى عنه الشرع.

وشعور الإنسان بهذين الدافعين القويين المتكاملين والمتفقين في الغاية يجعلانه في حالة استعداد تام.

ويلاحظ أن القرآن لا يعتمد فقط في إثارة الدافع لقبول الإسلام والتسليم بأحكامه على تخويف الناس وترهيبهم من العذاب الأليم في نار جهنم، وإنما يعتمد أيضًا في نفس الوقت على ترغيبهم في الاستمتاع بنعيم الجنة.

---

[74]() إحياء علوم الدين: (4/133).

وذلك لأن استخدام الترهيب وحده، أو الترغيب وحده قد لا يكون مفيدًا الفائدة المرجوة في تعديل السلوك وتوجيهه، فاستخدام الترهيب وحده قد يؤدي إلى طغيان الرهبة على النفس فتيأس من رحمة الله، واستخدام الترغيب وحده قد يؤدي إلى استيلاء الأمل في رحمة الله على النفس مما قد يوكلها إلى الدعة والتهاون والغفلة.

لذلك فإن القرآن لا يعتمد على الترهيب فقط، أو الترغيب فقط، وإنما يعتمد على مزيج منهما، الخوف من عذاب الله، والرجاء في رحمته وثوابه، والأمثلة في هذا الباب كثيرة:

قال تعالى: 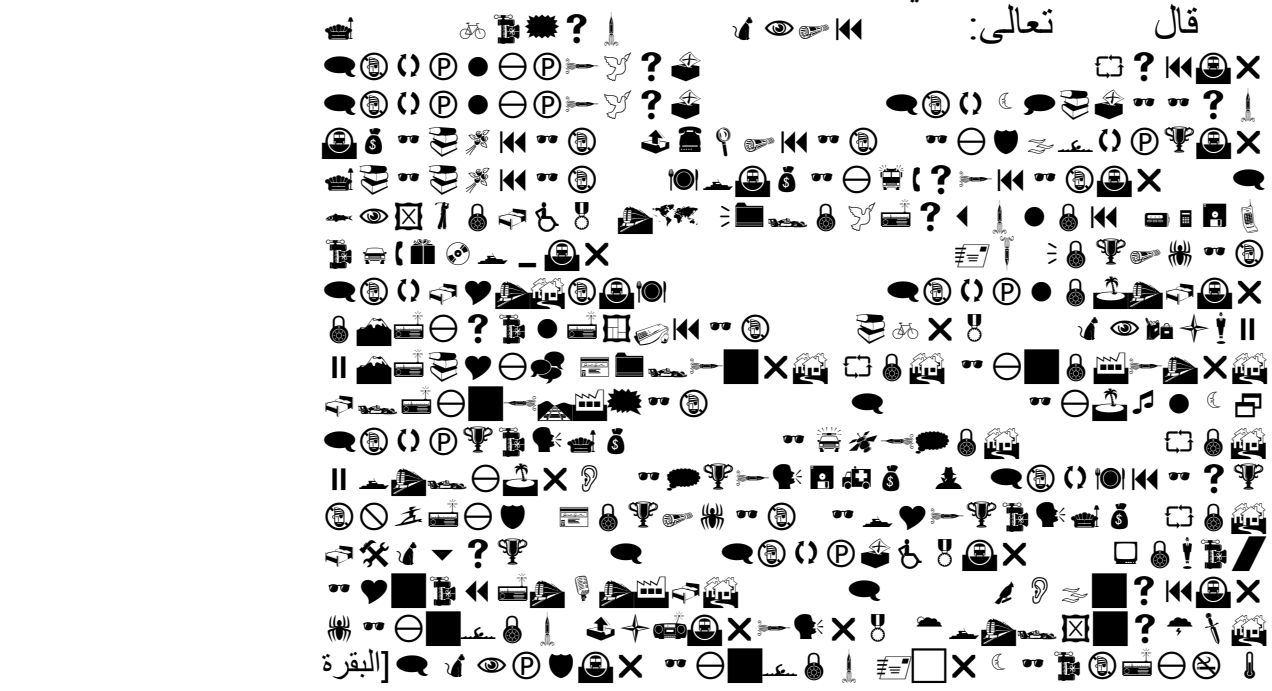[البقرة : 24 – 25].

وقال تعالى: [البقرة: 81].

وقال تعالى:

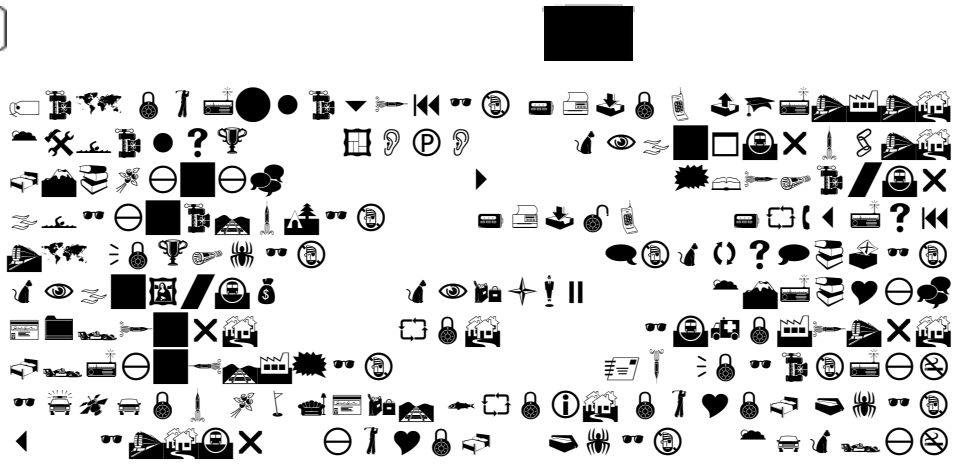

[آل عمران 196-198].

وقال تعالى:

[النساء: 56 – 57].

وقال تعالى:

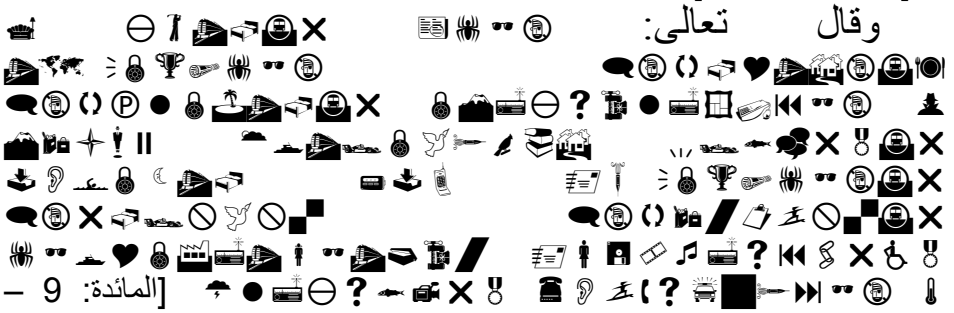

[المائدة: 9 –

.[10

وقال تعالى:

[طه: 74-75].

وقال تعالى:

[الحج: 50 – 51].

وقال تعالى:

[الحج: 56-57].

وقال تعالى:

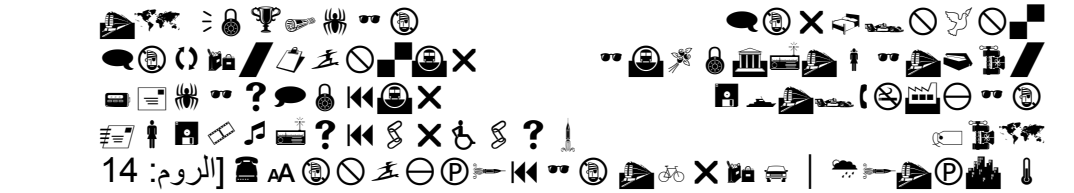
[الروم: 14 – 16].

وقال تعالى:

[الانفطار: 13 -14].

وقال تعالى:

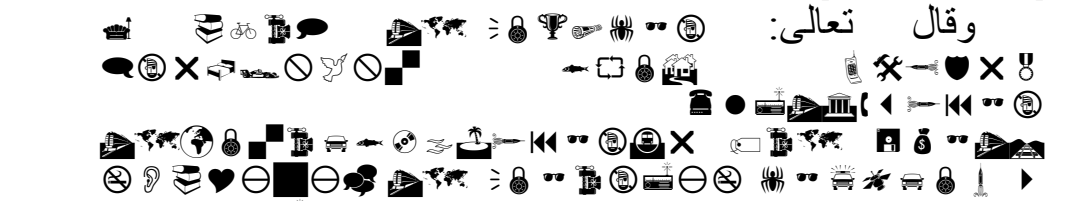
[البينة: 6 – 8].

وهكذا نجد التمازج بين الترغيب والترهيب، التشويق والتحذير، الخوف والرجاء شائعًا في جنبات القرآن الكريم، وهو ما يفسر به وصف القرآن الكريم بأنه «مثاني».

قال تعالى:

[الزمر: 23].

قال الشيخ السعدي : «مثاني»: «أي تثنى فيه القصص والأحكام،

والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتثنى فيه أسماء الله وصفاته، وهذا من جلالته، وحسنه، فإنه تعالى، لما علم احتياج الخلق إلى معانيه المزكية للقلوب، المكملة للأخلاق، وأن تلك المعاني للقلوب، بمنزلة الماء لسقي الأشجار، فكما أن الأشجار كلما بعد عهدها بسقي الماء نقصت، بل ربما تلفت، وكلما تكرر سقيها حسنت وأثمرت أنواع الثمار النافعة، فكذلك القلب يحتاج دائما إلى تكرر معاني كلام الله تعالى عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنى مرة واحدة في جميع القرآن، لم يقع منه موقعا، ولم تحصل النتيجة منه»[75].

2- في السنة النبوية:

لقد حفلت كتب السنة النبوية بالكثير من أحاديث الترغيب والترهيب والخوف والرجاء، بل قد خُصِّصت كتب للترغيب والترهيب تعد مرتكزًا مهمًا للتأثير في النفس واستقامة السلوك، وهذه بعض النماذج في هذا المجال.

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة ط أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد . ...» قال: «ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد» [76].

وفي هذا تنبيه للمؤمن أن لا يغتر بالرجاء ويترك الخوف فيدعوه ذلك إلى التكاسل عن الطاعات، وترغيب للكافر أن يبادر إلى الإيمان وألا يقنط من رحمة الله سبحانه مهما بدر منه، فالإيمان يجب ما قبله، ولعل هذه الومضة من الرجاء تنير قلبه وتكون سببًا في هدايته.

وعن أبي هريرة ط قال: مرَّ رسول الله ﷺ على رهط من أصحابه وهم يضحكون فقال : «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، فأتاه جبريل فقال: إن الله يقول لم تقنط عبادي»، قال: فرجع إليهم فقال : «سددوا وقاربوا وابشروا» [77].

قال أبو حاتم: «سددوا»: يريد به كونوا مسددين والتسديد لزوم طريقة النبي ﷺ، وإتباع سنته، وقوله: «وقاربوا»: يريد به لا

---

[75]() تيسير الكريم الرحمن: ص: (723).
[76]() أخرجه مسلم: (4/2109رقم2755)، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى.
[77]() صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (1/319-رقم113).

تحملوا على الأنفس من التشديد ما لا تطيقون، وأبشروا فإن لكم الجنة إذا لزمتم طريقتي في التسديد وقاربتم في الأعمال.

روى الترمذي من حديث أنس: أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال: «كيف تجدك؟» قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف» ([78]).

يقول ابن القيم: «القلب في سيره إلى الله ـ عز وجل ـ بمنزلة الطائر؛ فالمحبة رأسه، والخوف، والرجاء جناحاه؛ فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضه لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف» ([79]).

ولا شك أن الموازنة بين الترغيب والترهيب في الدعوة مردها إلى فطنة الداعي وكياسته وحكمته وبصره بما يحتاج الموقف، هل هو تغليب الترغيب على الترهيب أو العكس أو التوازن بينهما، وهذا المنهج درج عليه القرآن والسنة، فتارة نجد ترغيبًا فقط وتارة نجد ترهيبًا فقط وتارة ثالثة فمجد المزج بينهما، وإذا كان ما قدمناه من نصوص السنة يشهد للمزج بينهما فهذه أمثلة للترغيب وأخرى للترهيب.

ثانيًا: ذكر الترغيب فقط:

روى البخاري عن سمرة أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة»([80]).

وروى البخاري أيضًا عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»

---

[78]() أخرجه الترمذي: (3/311رقم983)، كتاب الجنائز، باب الرجاء بالله والخوف بالذنب عن الموت، وقال: هذا حديث حسن غريب.

[79]() مدارج السالكين: (1/514).

[80]() أخرجه البخاري: (4/19رقم2790)، كتاب الجهاد والسير، باب درجات الجنة.

([81]).

وروى البخاري أيضًا عن أبي موسى الأشعري ط أن رسول الله ﷺ قال: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة مجوفة طولها ستون ميلًا في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضًا» ([82]).

وروى مسلم عن أبي هريرة ط أن رسول الله ﷺ قال: «من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس، ولا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه» ([83]).

مما لا شك فيه أن من يطلع على هذه الأحاديث – وهناك غيرها – تتحول حياته الدنيا إلى نعيم يرسم الابتسامة على الوجه، حتى ولو انعدمت كل أسباب الحياة المادية للمؤمنين بها، لأنها حياة تستحق أن يعيشها حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، لأنه عرف أن الدنيا زائلة فانية، وأن الآخرة هي الباقية ومن ثم دنياه مجرد معبر إلى هذه الآخرة فعاش فيها بروح المرتحل المتطلع إلى جنة الخلد.

وهكذا يكون الترغيب وسيلة ضاغطة ودافعة باتجاه الخير، والسلوك الحسن، وابتغاء رضي الله تعالى في كل عمل يفعله المرء، حرصًا منه على نيل المرغّب فيه، وخشية من فواته، لاسيما وأنه لا مثيل له ولا تعدله لذة مهما بلغت([84]).

ولقد أخذ الرسول ﷺ بهذا في تربية أصحابه في مواقف متعددة من سيرته، فكان أن ضحوا بكل غالٍ ونفيس من أجل الحصول على مرضات الله سبحانه وتعالى والفوز بالجنة.

ففي غزوة بدر وقف يرفع من معنويات جنوده، فوعدهم بنصر الله، وبشرهم بالجنة وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا، مقبلًا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة».

لقد كان لتلك الكلمات المرغبة المحفزة المشوقة أثرها العظيم في إقبال المؤمنين على المعركة وتفانيهم في خوضوها حتى قال عمير بن

---

[81]() أخرجه البخاري: (6/183رقم1881)، كتاب التفسير، باب قوله: (وظل ممدود).

[82]() أخرجه البخاري: (4/143رقم3245)، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة والنار وأنها مخلوقة.

[83]() أخرجه مسلم: (4/8121رقم2836)، كتاب الجنة ونعيمها، باب في دوام نعيم أهل الجنة.

[84]() أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية: ص: (223).

الحمام حينما سمع ذلك من الرسول ﷺ وفي يده تمرات يأكلهن: بخٍ بخٍ، أفما بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه فقاتل القوم (85) وهو يقول:

ركضا إلى الله بغير زاد	**إلا التقى وعمل المعاد**
والصبر في الله على الجهاد	**وكل زاد عرضه النفاد**

غيـر التـقى والبـر والرشـاد

ثالثًا: ذكر الترهيب فقط:

- روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة ط أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله عز وجل يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه ابن السبيل، ورجل بايع رجلا سلعة بعد العصر فحلف بالله لأخذها بكذا وكذا فصدقه وهو على غير ذلك، ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا لدنيا فإن أعطاه منها وفّى له، وإن لم يعطه منها لم يف»(86).

إن هذه السلوكيات الخاطئة - التي يقررها الحديث - والتي قد يوجد في المجتمع المسلم من يفعلها ويجترئ على تكرارها، لا شك أنها تحطم المجتمع المسلم، وتفقده كل قيم الخير وفضائل الأعمال، وكان لا بد من زجر شديد ووعيد مخيف، يوقظ قلب هذا المجترئ الجاني، يجعله أمام خيارين لا ثالث لهما: إما الحرمان من نظر الله تعالى إليه ورحمته ومغفرته، وإما ترك هذا العمل المشين المخل بالمروءة والسلوك الصحيح.

إن الموعظة الحسنة والترفق مع أمثال هؤلاء الذين فقدوا القيم الفاضلة والأخلاق الحميدة لا تجدي نفعًا معهم، لأن بذل الماء والوفاء بالعهد والصدق من شيم حتى بعض من لا دين له، لأن من فعل مثل فعلهم فإنما فعله بدافع اللؤم وسقوط المروءة، فكان لابد له من هزة عنيفة قوية، وطرقة شديدة لعلها توقظ قلبه الغافل، وتنشله من حمأة

85() أخرجه مسلم بلفظ آخر: (3/1509رقم1951)، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد.

86() أخرجه البخاري: (9/99رقم7212)، كتاب الأحكام، باب من بايع رجلًا لا يبايعه إلا للدنيا.

اللؤم والأنانية إلى السلوك الصحيح القويم[87].

- وروى الترمذي عن أبي هريرة ط أن النبي ﷺ قال: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، إلا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[88].

وهذا الحديث دليل واضح على دور الترهيب في تزكية النفس وتقويم اعوجاجها، فمن خاف الليل الحالك في المكان الموحش أسرع السير من أول الليل ليدرك مأمنه، ولو أنه تباطأ وتقاعس لحلت به الندامة واجتمعت عليه المخاوف واشتدت ظلمة الليل فلم يعد يستطيع المسير، وكذلك العبد الموفق الذي يسير في طريق الآخرة ينبغي عليه أن يستحث الخطأ ليبلغ منزلة في الجنة، وأن يهرب من المعاصي ويحذر من مكائد الشيطان ويجاهد نفسه على طاعة الله، ليحظى بالجنة التي هي غالية الثمن ولا تنال إلا بالجهد والبذل ودوام لخشية من المولى سبحانه[89].

وعليه فلابد فيه من ميزان دقيق لئلا يؤدي إلى اليأس من رحمة الله سبحانه.

يقول الإمام ابن القيم: «الخوف المحمود الصادق هو ما حال بين صاحبه وبين محارم الله - عز وجل - فإذا تجاوز ذلك خِيْفَ منه اليأس والقنوط» [90].

موقف الداعية من هذه القاعدة:

الداعية الموفق الحكيم، والواعظ الحصيف الفطن، هو من يسير على نهج الكتاب والسنة في الترغيب والترهيب، يستخدم أيًا منهما في المكان الذي يراه مناسبًا، مراعيًا لنفسيات المخاطبين وظروفهم، فقد يستعمل الترغيب تارة والترهيب أخرى، وطورًا يجمع بين الترغيب والترهيب، وعلى هذا المنهج كان الدعاة من سلفنا الصالح.

قال الإمام علي ط: «ألا أخبركم بالفقيه حق الفقه؟: الذي لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يرخص للمرء في معاصي الله، ولا يدع

87() أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية: ص: (250).

88() أخرجه الترمذي: (4/633رقم2450)، كتاب صفة القيامة والرقاق والورع، باب (18)، وقال: هذا حديث حسن غريب.

89() منهج الإسلام في تزكية النفس: ص: (363).

90() مدارج السالكين: (1/514).

القرآن رغبة إلى غيره، إنه لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا خير في علم لا فقه فيه، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها» ([91]).

ويروى عن الإمام ابن شهاب الزهري أنه ذكر ذات مرة حديث المسرف على نفسه الذي قال لأولاده: «إذا أنا مت فأحرقوني ثم ذروني ثم اسحقوني، ثم ذروني في البر والبحر، فو الله لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذابًا لا يعذبه أحدًا، قال... فقال الله له: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: خشيتك يا رب! فغفر له بذلك».

ثم تبعه بحديث «المرأة التي دخلت النار في هرة فحبستها»، ثم قال عقبهما: «ذلك لئلا يتكل رجل ولا ييأس رجل».

قال الإمام النووي: «قال ابن شهاب: لئلا يتكل رجل ولا ييأس رجل، معناه: أن ابن شهاب لما ذكر الحديث الأول خاف أن سامعه يتكل على ما فيه من سعة الرحمة، وعظم الرجاء، فضم إليه حديث الهرة الذي فيه من التخويف ضد ذلك، ليجتمع الخوف والرجاء، وهذا معنى قوله: لئلا يتكل ولا ييأس، وهكذا معظم آيات القرآن العزيز، يجتمع فيها الخوف والرجاء، وكذا قال العلماء: يستحب للواعظ أن يجمع في موعظته بين الخوف والرجاء؛ لئلا يقنط أحد ، ولا يتكل...»([92]).

نعم: إن على الداعية أن يوازن في دعوته بين ترهيب الناس وتخويفهم بالله، وبما يكون من عواقب ذنوبهم في الدنيا، وما عليها من العذاب الشديد في الآخرة، وبين ترغيبهم بما عند الله عز وجل، من الجزاء العظيم، والنعيم المقيم، وما يفتح الله لهم من الخير والبركات والنصر والتمكين في الدنيا، مما يرغبهم للإقبال على الله وطاعته، والتوبة إليه ومحبته.

ولا ينبغي للداعية أن يقتصر على جانب دون جانب، فإن بدأ بالترهيب فينبغي عليه أن يختم بالترغيب، وكذا إذا بدأ بالترغيب ختم بالترهيب.

إن الداعية كالطبيب الحاذق والصيدلاني الماهر يستطيع بحذقه ومهارته أن يشخص بدقة ما يحتاج إليه المدعوون من ترغيب

---

[91]() كتاب العلم للحافظ أبي خثيمة رقم: (143).
[92]() شرح النووي على مسلم (75/17-76).

وترهيب تشفى به قلوبهم وتصلح به نفوسهم، ومن ثم يقرر لهم من أدوية القرآن والسنة –ترغيبًا وترهيبًا- ما تشفى به النفوس وتطب القلوب.

فالترهيب ليس قنوطًا أو يأسًا أو رهبة تشل التفكير، وإنما هو تحذير من الأخطاء، ودلالة على الصواب، وترشيد للأعمال، حتى تنطلق الطاقات القوية إلى الغاية بغير تعويق أو عقبات.

كما أن الترغيب ليس من أحلام اليقظة ولا من الوعود المعسولة، وإنما هو تنشيط للهمم، وتشجيع للطاقات، وشحذ للعزائم، فهو كالجائزة للمتسابقين في مضمار الإحسان والإنتاج والاجتهاد، وهذا هو طريق المتقين، وأسلوب الدعاة العاملين الناقهين، وصدق الله:

[الأنبياء: 90].

النتائج المترتبة على مخالفة هذه القاعدة:

إن غياب هذه القاعدة من منهج الداعية يدفع الناس إلى حد أمرين: إما اليأس والنفور، وإما الطمع والتواكل، وفي كل خلل.

إن الداعية لو اقتصر على الترهيب ليأس المدعوون، واليأس باب من أبواب الشيطان، يدفع الناس إلى التمادي في الفسوق، أو القنوط من رحمة الله، ثم النفور من الداعية والدعوة، وفي كل شر مستطير.

قال تعالى:

[يوسف: 87].

ولو اقتصر على منهج الترغيب، لتوكل المدعوون على الرحمة، وقل خوفهم من العذاب، وتمادوا في العصيان، وعزفوا عن التوبة، وأصروا على ما فعلوا، وفي هذا من الخطر العظيم ما لا يخفى.

قال تعالى:

[آل عمران: 135].

لذلك كان من الحكمة الجمع بين الترغيب والترهيب:

[المائدة: 11].

والخلاصة:

أن ما سبق يمكن أن يجمل في الفقرات الآتية:

1 – أن الأساليب في الدعوة متنوعة ومتعددة، ومن أبرزها الترغيب للخير، والترهيب من الشر.

2 – أن الله جل وعلا ذكر هذين الأسلوبين في القرآن الكريم، وربط بينهما، وجمع بينهما، فما يذكر أسلوب إلا ويتلوه آخر في آيات متجاورة، بل في آية واحدة أحيانًا.

3 – وكذلك حفلت السنة النبوية، بل جمع الأئمة كتبًا خاصة في ذلك كما فعل الإمام المنذري : في كتاب «الترغيب والترهيب».

4 – أن النبي صلى الله عليه وسلم جمع في مواعظه وتوجيهاته بين الأسلوبين، وهكذا سار أئمة الإسلام في دعوتهم وعظًا وتعليمًا وإرشادًا.

5 – من الخير للداعية أن يستخدم هذا الأسلوب، وأن يبقى جزءًا من منهجية الدعوة في هذا الوقت، ويمكن أن يكون لذلك جملة صور تطبيقية، وبخاصة أنه ينادى الآن لتجديد الخطاب الديني، ومن هذه الصور:

أ – الترغيب والترهيب حال الوعظ والإرشاد، والخطب، والمحاضرات، والدروس ونحوها.

ب – وما يقال في الكلام يقال في المكاتبات على شكل مقالة علمية، أو صحفية، أو رسالة فردية، ونحوها.

ج – ومثله في ما هو أكبر من كتابة الكتب، أو الندوات المطولة، أو المحاورات ونحوه.

د – كما يستعمل الترغيب والترهيب في القضايا العملية، مثل:

الحوافز على عمل «ما»، أو الجزاء على ترك عمل أو إهماله، وبالأخص في الأسر، والمدارس، وأمكنة إقامة المناشط وغيرها.

□□□□□

القاعدة الثالثة
في التـفـاؤل

مدخل: (من مقومات الدعوة الناجحة التفاؤل وحسن الظن بالله وعدم اليأس والقنوط مهما ضاقت الأمور وتأخرت النتائج مع العمل بالأسباب والتقويم).

إن من الداء العضال الذي يشل حركة الدعوة والداعية ويضعف الهمة وربما يؤدي به إلى التساقط في طريق الدعوة اليأس من الواقع، وكثرة الشر الذي يلوح له منه، فهو قد يرى الكفار في إقبال، والمسلمين في إدبار، وأن أصحاب الشر ينتصرون، وأن أصحاب الخير ينهزمون، وأن أهل المنكر غالبون، وأهل المعروف ودعاته مخذولون.

ومعنى هذا: أن لا أمل في تغيير، ولا رجاء في إصلاح، وأننا ننتقل من سيئ إلى أسوأ، وهذا لا شك خطأ جسيم لأن اليأس إذا سيطر على المشاعر، واستسلمت له النفوس، قتل فيها الهم، وخدّر العزائم، ودمّر الطموحات، وهذه المعاني هي التي تحرك الإرادات للعمل، وبذل الجهد.

وكل داعية للإسلام يجب أن يكون واثقًا بوعد الله تعالى، مستبشرًا بمستقبل رسالته الخاتمة، ودعوته الخالدة، رافضًا اليأس الذي هو من لوازم الكفر، والقنوط الذي هو من مظاهر الضلال، قال تعالى:

[يوسف: 87]، وقال تعالى

[الحجر: 56].

معنى التفاؤل:

التفاؤل هو: انشراح قلب الإنسان، وإحسانه الظن، وتوقع الخير

بما يسمعه من المتكلم الصالح أو الحسن أو الطيب[93].

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا هامة ولا طيرة، وأحب الفأل الصالح»[94].

وإنما أحب النبي ﷺ الفأل؛ لأن الإنسان إذا أمل فائدة الله، ورجا عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوي فهو على خير، ولو غلط في وجهة الرجاء فإن الرجاء لهم خير، ألا ترى أنهم إذا قطعوا أملم ورجاءهم من الله كان ذلك من الشر[95].

وقال القرطبي: (وإنما كان يعجبه الفأل لأنه تنشرح له النفس، وتستبشر بقضاء الحاجة وبلوغ الأمل ، فيحسن الظن بالله تعالى وقد ورد في الحديث القدسي: «أنا عندي ظن عبدي بي») [96].

وقال الماوردي: (فأما الفأل ففيه تقوية للعزم وباعث على الجد ومعونة على الظفر، فقد تفاءل رسول الله ﷺ في غزواته وحروبه»، وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ سمع كلمة فأعجبته، فقال: «أخذنا فألك من فيك») [97].

معنى اليأس:

اليأس هو: القطع بأن الشيء لا يكون، وقال ابن الجوزي: هو القطع على أن المطلوب لا يتحصل لتحقق فواته[98].

واليأس قرين الكفر والضلال، قال تعالى:
[يوسف: 87].

وقال تعالى:
[الحجر: 56]، وهو آية السخط على قدر الله، يضعف القوى ويثقل الأجساد، ومن ثم قال رسول الله ﷺ:

---

[93]() نضرة النعيم: ص: (1044).

[94]()أخرجه مسلم: (4/1746رقم2223)، كتاب الطب، باب الطيرة والفأل وما يكون فيه الشؤم.

[95]() النهاية في غريب الحديث (3/405).

[96]() تفسير القرطبي (6/60).

[97]() أخرجه أبوداود: (4/26رقم3919)، كتاب الطب، باب في الطيرة، وهو حديث صحيح.

[98]() نضرة النعيم: ص: (5725).

«لا تيأس من الرزق ما تهززت رءوسكما –كناية عن الحياة- فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشر ثم يرزقه الله عز وجل» (99).

الداعية بين الواقع المعاش والمستقبل المأمول:

من ينظر في واقع الأمة يرى أنها تمر بأمراض وآفات دينية وخلقية وعملية، شكى منها الدعاة والمربون والمصلحون، ولا يزالون يشكون.

فقد ابتعد بعض الناس عن الدين فصاروا فيه بين الغالي فيه والجافي عنه، كما قال الإمام الحسن البصري، أو بين «جامد وجاحد» كما قال أمير البيان شكيب أرسلان، ذلك يصد الناس عن الإسلام بجموده، والآخر يفتنهم بجحوده.

وضعف التوحيد بين خرافات العرّافين، وأباطيل الدجالين، بين شرك العوام الذين يكادون يعبدون قبور الأموات، وشرك الخواص الذين يكادون يعبدون الدنيا، وضعف الجانب الرباني في الحياة الإسلامية، حين وجدنا في المسلمين من يضيع الصلوات، ويتبع الشهوات.

وضعف العقل الإسلامي، فلم يعد يفكر ويبتكر، ويضيف الجديد إلى الحضارة، ويعدل القديم منها بل غدا عالة على غيره، وافتتن كثير من المثقفين والمتعلمين بما عند الآخرين من غير المسلمين وضعف الخلق الإسلامي الأصيل، بغياب «شعب الإيمان» التي بين لنا الرسول الكريم أنها «بضع وسبعون شعبة، أعلاها: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان» (100)، وشاع في أخلاق كثير من المسلمين النفاق العملي، فوجدنا من «إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

وانتشر الترف المدمر في طبقة عاطلة يسر لها كل شيء، والبؤس القاتل في طبقات كادحة تتعب وتلهث، ولا تكاد تجد شيئًا...وكثرة الظلم في مجتمعات المسلمين، وظلم الأغنياء الفقراء، وظلم الأقوياء الضعفاء، وظلم أرباب العمل العمال، وظلم الرجال النساء، والظلم لا تنهض به أمة ولا يبنى به مجتمع. نعم ليس هذا في

99() أخرجه ابن ماجة: (5/266رقم4165)، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين.

100() أخرجه مسلم: (1/63رقم35)، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان.

كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي لكنه واقع بالمجموع، وهذا الواقع المؤلم لم يكن ليهزم إرادة الداعية المخلص ولا ليضعف من عزيمته، لأن الداعية يتطلع دائمًا إلى المستقبل، ومهما يضغط عليه الواقع بهمومه الآنية، ومشكلاته اليومية، وجراحه المستمرة في النزيف فإنه يرنو إلى الغد، ويستشرف للمستقبل، ويعد له العدة، ويأخذ له الحيطة، محاولًا أن يسد ما يتوقع من ثغرات، وأن يعالج ما يطرأ من آفات، وأن يغرس نواة اليوم لتصبح نخلة أو شجرة زيتون بعد سنوات.

ونبينا عليه الصلاة والسلام كان يسلك هذا المسلك، ففي الحديبية اشتد الأمر على الصحابة – رضوان الله تعالى عليهم – فلما رأو سهيل بن عمرو قادمًا قال لهم ﷺ: «قد سهل لكم من أمركم» [101].

وفي الخندق لما زاغت أبصار الأصحاب من شدة الكرب، وبلغت قلوبهم الحناجر، وزلزلوا زلزالًا شديدًا كما وصفهم العليم الخبير في القرآن الكريم في تلك الحال والعدو من فوقهم ومن أسفل منهم يضرب النبي ﷺ الصخرة الصلدة التي كسرت حديدهم واستعصت عليهم، ويكبر تكبير فتح ثم يبشرهم بالظهور على كل القوى العالمية في ذلك الوقت[102].

بل لم يكن النبي ﷺ يستعمل هذا الأسلوب مع أصحابه عند اشتداد الكروب فحسب، بل حتى مع من يريد استمالة قلوبهم للإسلام، ومن يريد أن يكف شرهم، فقد جاءه عدي بن حاتم، فلما رأى ما بأصحابه من خصاصة، ورأى فيهم الضعفة ومن لا قوة لهم وقد رمتهم العرب، رغب عن الإسلام، فقال له النبي ﷺ: «فقال: يا عدي، هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها. قال: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله.. ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج بملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله منه»[103].

فثبت ذلك قلبه، فأعلن عدي ط إسلامه.

---

[101]() أخرجه البخاري: (3/252رقم2731 – 2732)، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب.

[102]() انظر: تاريخ الطبري: (21/134).

[103]() أخرجه البخاري: (4/240رقم3595)، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.

كذلك لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه ط مهاجرين إلى المدينة واجتهدت قريش في طلبهما ورصدت مئة من الإبل لمن يدل عليهما، خرج سراقة بن مالك في طلبهما، فلما أدركهما دعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم فساخت قوائم جواده ثم قال: «كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟»[104].

إنما بأمتنا من الكرب ليس بأشد مما لقيه الصحابة – رضوان الله عليهم - في الخندق، ولئن حرص العدو على إضعافها والقضاء عليها فليس هو اليوم بأشد حرصًا من المشركين على إطفاء نور الله، ولئن اجتهد العدو في التنكيل بها فليس ذلك ببدع من مشركي هذا الزمن فقد اشتد من قبل أذى المشركين لنبي الله تعالى وصحبه الكرام، ولئن طورد بعض الدعاة والمصلحين في بعض بلاد الله وضُيق عليهم فقد طورد نبيهم صلى الله عليه وسلم وصحبه – رضوان الله عليهم - من قبل وهُجِّروا، بل وحوربوا بعد أن أخرجوا من أرضهم، وذلك هو سبيل أئمة السنة في كل عصور الاستبداد.

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم من قد عايش تجربة أسلافه من أهل الحق بعد أن ذكر شيئًا مما جرى للإمام أحمد: (فلا إله إلا الله ما أشبه الليلة بالبارحة! وتلك هي السبيل لأهل السنة والجماعة حتى يلقوا ربهم، مضى عليها سلفهم، وينتظرها خلفهم)، [illegible] [الأحزاب: 23] [105].

ولله در من قال:

وراء مضيق الخوف متسع الأمن فلا تيأسن فالله ملك يوسفا	**وأول مفروح به آخر الحزن خزائنه بعد الخلاص من السجن**

إن استشراف الأمل والتفاؤل يحفز الداعية للعمل، ويورثه

---

[104] ينظر: الاستيعاب لابن عبد البر (2/581).
[105] إعلام الموقعين: (3/398).

طمأنينة النفس وراحة القلب، والمتفائل لا يبني من المصيبة سجنًا يحبس فيه نفسه، لكنه يتطلع للفرج الذي يعقب كل ضيق، ولليسر الذي يتبعه كل عسر.

وقد كان نبينا ﷺ إمامًا في التفاؤل والثقة بوعد الله تعالى، تقول أمنا عائشة ك للنبي ﷺ: «هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟» فقال: «لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم قال فناداني ملك الجبال وسلم علي ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال له رسول الله ﷺ بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا» [106].

إن سم التشاؤم الذي يحاول المنافقون دسّه للمنتمين لهذا الدين له ترياق جدير بإبطاله، ألا وهو تقوية اليقين بمعية الله تعالى للمؤمنين، ووعده بتمكين هذا الدين ونصره للمسلمين، والله لا يخلف الميعاد.

مبشرات القرآن بالتمكين لهذا الدين:

المتدبر للقرآن الكريم يجده حافلًا بالآيات الكريمة التي تعد الأمة المسلمة بالتمكين والغلبة والعلو، ويجد ذلك الوعد مؤكدًا في صور كثيرة ولقد كانت آية واحدة كافية لإقرار هذه الحقيقة؛ ولكن الله تعالى بحكمته أراد أن يملأ قلوب المؤمنين بالثقة والأمل حتى لا يقطع بهم اليأس في محنة من المحن وفي مرحلة من مراحل الاستضعاف، من هذه الآيات:

1- قال تعالى: 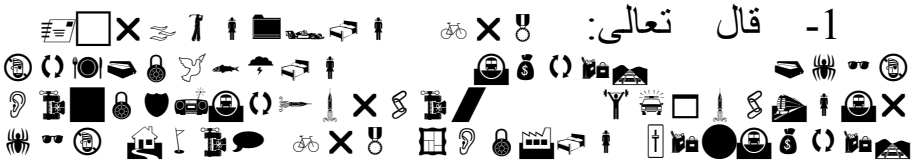

[106]()أخرجه البخاري: (4/140رقم3231)، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء.

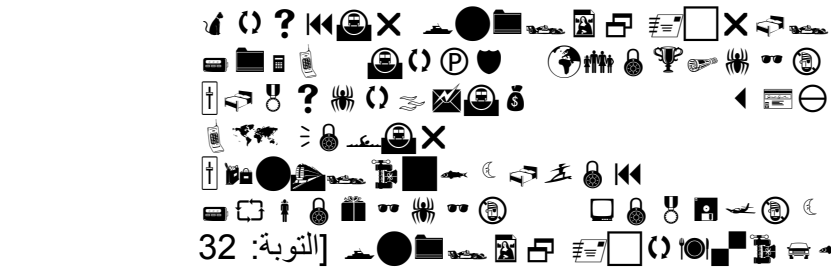
[التوبة: 32-33].

قال الشيخ السعدي: ونور الله: دينه الذي أرسل به الرسل، وأنزل به الكتب، وسماه الله نورا، لأنه يستنار به في ظلمات الجهل والأديان الباطلة، فإنه علم بالحق، وعمل بالحق، وما عداه فإنه بضده، فهؤلاء اليهود والنصارى ومن ضاهوه من المشركين، يريدون أن يطفئوا نور الله بمجرد أقوالهم، التي ليس عليها دليل أصلا.

لأنه النور الباهر، الذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائه أن يطفئوه، والذي أنزله جميع نواصي العباد بيده، وقد تكفل بحفظه من كل من يريده بسوء، ولهذا قال:

وسعوا ما أمكنهم في رده وإبطاله، فإن سعيهم لا يضر الحق شيئا.

ثم بين تعالى هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه فقال: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى) الذي هو العلم النافع (وَدِينِ الْحَقِّ) الذي هو العمل الصالح فكان ما بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم مشتملا على بيان الحق من الباطل في أسماء الله وأوصافه وأفعاله، وفي أحكامه وأخباره، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب، والأرواح والأبدان من إخلاص الدين لله وحده، ومحبة الله وعبادته، والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، والأعمال الصالحة والآداب النافعة، والنهي عن كل ما يضاد ذلك ويناقضه من الأخلاق والأعمال السيئة المضرة للقلوب والأبدان والدنيا والآخرة.

فأرسله الله بالهدى ودين الحق (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، والسيف

والسنان، وإن كره المشركون ذلك، وبغوا له الغوائل، ومكروا مكرهم، فإن المكر السيئ لا يضر إلا صاحبه، فوعد الله لا بد أن ينجزه، وما ضمنه لا بد أن يقوم به(107).

معنى الآية: ليظهرن دين الإسلام على الأديان كلها، وهو ألا يعبد الله إلا به، وكذا روى عن أبي هريرة ط أنه قال: (هذا وعدٌ من الله، بأنّه ـ تعالى ـ يجعل الإسلام عاليًا على جميع الأديان، وتمام هذا إنما يحصل عند خروج عيسى).

وكذلك قال الضحاك والسدي: لا يبقى أحد إلا دخل الإسلام(108).

2-وقال تعالى: [illegible] [النور : 55].

قال ابن كثير: هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أئمة الناس، والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، وحكما، فيهم وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمنة : فإنه صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر وإسكندرية وهو المقوقس وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة.

---

[107]() تفسير السعدي: ص: (295-296) بتصرف.

[108]() تفسير القاسمي: (5/399).

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق ط فلم شعث ما وهى بعد موته ﷺ وأخذ جزيرة العرب، ومهدها، وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد ط ففتحوا طرفا منها، وقتلوا خلقا من أهلها، وجيشا آخر صحبة أبي عبيدة ط ومن أتبعه من الأمراء إلى أرض الشام وثالثا صحبة عمرو بن العاص ط إلى بلاد مصر ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها، وتوفاه الله عز وجل واختار له ما عنده من الكرامة، ومن على أهل الإسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق فقام بالأمر بعده قياما تاما لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة سيرته وكمال عدله، وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر وانتزع يده عن بلاد الشام، وانحدر إلى القسطنطينية وأنفق أموالهما في سبيل الله كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله؛ عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة، ثم امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها؛ ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك الأندلس وقبرص؛ وبلاد القيروان وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين؛ وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية؛ وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا؛ وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان وجبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان ابن عفان ط وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها...»[109]. فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله فنسأل الله الإيمان به وبرسوله والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا[110].

وهذا الوعد الإلهي للمؤمنين وعد دائم ومستمر، وما تحقق في

---

[109]() أخرجه مسلم: (4/2215رقم2889)، كتاب الفتن، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض.

[110]() تفسير ابن كثير (10-263-264).

عهد الخلفاء الراشدين من نصر وتمكين، يمكن أن يتحقق لمن بعدهم، فإن وعد الله تعالى لا يتخلف، قال تعالى: [الكهف: 98].

ووعد الله هنا مشروط بالإيمان وعمل الصالحات وعبادة اله وحده، وعد الإشراك به قال تعالى: (يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا).

3- قال تعالى: [الصافات : 171 – 173].

ولعل المبشرات في هذا الآية غاية في الوضوح إذ جاءت المؤكدات على نصرة الله تعالى لعباده المرسلين، ومن انتهج نهجهم وسار على طريقتهم، واقتفى سننهم، مهما كانت الأحوال والظروف، ومهما اختلفت الأساليب والطرق، ومهما تعددت العوائق والعقبات فالنصر قائم، والنتيجة حتمية لكن صورتها تختلف من زمان إلى آخر ومن واقع إلى آخر، ومن فرد إلى آخر، وإن طال الزمن.

والمهم: العمل بنهج المرسلين لتحقق الغلبة ويكون النصر.

مبشرات السنة بالتمكين لهذا الدين:

من يقرأ في كتب السنة يجد أحاديث النبي ﷺ التي تعد بالتمكين لهذه الأمة وتبشر به كثيرة، لكني سأقتصر على بعضها، وهي:

1- قوله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم بعمل الآخرة للدنيا فليس له في الآخرة نصيب»[111].

ففي هذا الحديث عدد من البشارات للأمة الإسلامية ويأتي التمكين ضمن هذه البشارات التي تنتظر الأمة الإسلامية المؤهلة له في أي

---

[111]() أخرجه أحمد في مسنده: (5/134رقم21258)، وابن حبان في صحيحه: (2/132رقم405)، والحاكم في المستدرك: (4/346رقم7862)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

زمان.

2- ما رواه تميم الداري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن هذا الأمر –يعني أمر الإسلام - ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز، أو ذل ذليل، عزا يعز الله به الإسلام، وذلًا يذل الله به الكفر»[112].

ومعنى بلوغه ما بلغ الليل والنهار: انتشاره في الأرض كلها، حيث يبلغ الليل والنهار، ودخول هذا الدين الحواضر والبوادي، فالحواضر هي التي بيوتها من مدر «أي من حجر» والبوادي هي التي بيوتها من وبر وشعر، وسيدخل الإسلام جميعها، وبهذا يتحقق وعد الله تعالى في كتابه: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)، وذلك في ثلاث آيات: في التوبة: 33، وفي الفتح: 28، وفي الصف: 9.

3- ما رواه حذيفة بن اليمان ط عن النبي ﷺ أنه قال: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًا فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة»، ثم سكت[113].

والملك العاض- وفي رواية العضوض – هو الذي يصيب الناس فيه عسف وظلم كأن له أنيابًا تعض. أما ملك الجبرية فهو القائم على الجبروت والقوة.

فهذا الحديث يفتح الآفاق بأن الحياة لا تكون على درجة واحدة ليسعى كل عامل بعمله يصحبه الفأل سواء كان على مستوى الأفراد أو الدعوات.

4- ما رواه أبو هريرة مرفوعًا: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر

---

[112]() أخرجه أحمد في مسنده: (4/103رقم16955)، وقال الهيثمي في المجمع: (6/14)، رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح.

[113]() أخرجه أحمد: (4/273رقم19405)، وقال الهيثمي في المجمع: (5/189)، رواه أحمد والبزار أتم فيه، والطبراني بعضه في الأوسط، ورجاله ثقات.

أو الشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله» (114).

وهذه النتيجة الحتمية لتورث فألًا عظيمًا لدى المسلمين بعامة والدعاة بخاصة يشبه وعود النبي صلى الله عليه وسلم التي جرت ووقعت في عهده وبعد عهده، كما يشبه ما كان من واقع اليهود الذي حكاه الله عنهم فلم تغن حصون أسلافهم من بني النضير عنه شيئًا، حين جاءهم بأس الله الذي لا يرد عن القوم المجرمين كما قال تعالى في شأنهم: 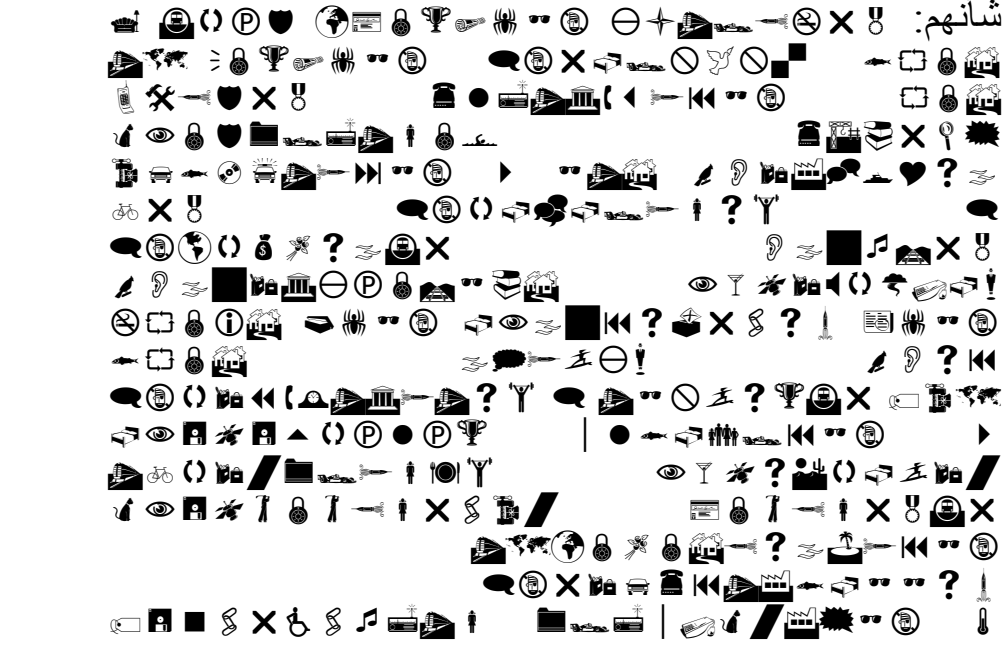

[الحشر: 2].

5- ما رواه أبو أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء حتى يأتيهم أمر الله» وهم كذلك قالوا: يا رسول الله وأين هم؟ قال: «ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس» (115).

---

(114) أخرجه البخاري: (4/51رقم2925)، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر رجل فيتمنى أن يكون مكانه ، ومسلم: (4/2238رقم2921).

(115) أخرجه في المسند: (5/269رقم22374)، وقال الهيثمي في المجمع (7/288)، ورجاله ثقات.

ومعنى هذا الحديث وغيره مما ورد في هذا المعنى: أن الخير سيستمر في هذه الآية، وأنها لا تخلوا من قائم لله بالحجة، ومن ناصر للحق، مستمسك به، حتى تقوم الساعة، وأن هذه الطائفة المنصورة باقية حتى يأتي أمر الله، وإن أصابها ما أصابها من لأواء وأذى.

يؤكد هذا ما رواه أبو مالك الأشعري قال رسول الله ﷺ: «إن الله أجاركم من ثلاث خصال: أن لا يدعو عليكم نبيكم فتهلكوا جميعا ، وأن لا يظهر أهل الباطل على أهل الحق ، وأن لا تجتمعوا على ضلالة» ([116]).

وعلى كل حال ما أكثر مبشرات السنة والكتاب القطعية، وما أحوج الناس إلى أن يرسخ إيمانهم بها في هذه الأزمان.

موقف الداعية من هذه المبشرات:

الداعية الناجح حين يقف على هذه المبشرات يوقن بها، ويمتلئ قلبه طمأنينة وثقة بنصر الله لهذا الدين والتمكين له، ومن ثم فهو يبث الأمل في روح مدعويه، ويبين لهم أن هذه المبشرات تدعو إلى العمل الدؤوب الذي تقوم به في جوانب الحياة كلها، تقوم ما اعوج منها، وتصلح ما فسد، وتبني ما تهدم، وتقوي ما ضعف، وتكمل ما نقص، بروح المجددين الواثقين بالله «ولينصرن الله من ينصره»، ومن هنا فعلى الدعاة أن يعملوا بهذا العامل الكبير، والمقوم العظيم من مقومات الدعوة في نجاحها فيحدوهم الأمل للنجاح ولمواصلة المسير.

لكن ينبغي أن يكون هذا التفاؤل مصحوبًا بما يلي:

1- أن يعلم الداعية أن مقادير الأمور بيد الله تعالى، والله سبحانه خلق هذا الكون وبناه على سنن لا تتخلف، فلا يلغي هذا التفاؤل العمل بالسنن فتكون مصادمة لها، والسنن منها كونية ومنها شرعية.

2- ألا تطغى النظرة التفاؤلية على الداعية أو الدعوة فينسى العمل بالأسباب، فأفضل البشر عليه الصلاة والسلام عمل بالأسباب كما في الدعوة في مكة، وفي قصة الهجرة إلى المدينة وفي جميع أحواله وظروفه، ولذا على الداعية أن يجتهد في العمل بالأسباب، ومن ذلك وضوح الهدف، والتخطيط، والآليات المناسبة، ثم يرجو الحصول على الثمار والنتائج، وإن اختلفت النتيجة يومًا فلن

---

[116]() أخرجه أبو داود: (4/98رقم4253)، كتاب الفتن، باب ذكر الفتن ودلائلها.

تتخلف يومًا آخر.

3- أن يؤمن الداعية بأن هذه الدعوة هي من أفضل الأعمال الصالحة، وما دامت كذلك فهي متعرضة لسنة الله تعالى في الابتلاء فالنبي صلى الله عليه وسلم ابتلي في شخصه، وابتلي في دعوته، لكن هذا أيضًا لا يعني أن الداعية يعرض نفسه للابتلاء، فيعمل بعشوائية، أو بأسباب تؤدي إلى ابتلائه ومحنته، لكن إذا وقع الابتلاء صحبه بالتفاؤل في حسن العاقبة.

4- من أهم مقومات التفاؤل الحق أن يخضع الداعية عمله للتقويم والمراجعة، وكذا المؤسسات تخضع برامجها لذلك فلا تصر على الأخطاء، وتستمر عليها، وتعلق النتائج بالتفاؤل.

5- من المهم في جانب التفاؤل أن يكون العمل مدروسًا دراسة نظرية وواقعية في ضوء ما سبق ذكره فلا يعني التفاؤل عدم الدراسة أو ضعف التخطيط، أو الإهمال أو التكاسل، أو العمل كيفما اتفق كما يحلو للبعض.

6 – ومن المهم أيضًا أن نفرق بين التفاؤل وهو المصحوب بعمل الأسباب وقوة الرجاء، وبين أحلام اليقظة غير الواقعية، فتكون المسألة من باب أماني العاجزين.

الآثار المترتبة على مخالفة هذه القاعدة:

إن الداعية الذي لا يفقه هذه القاعدة، وكذا المؤسسة الدعوية يعرضون أنفسهم وبرامجهم لسلبيات متعددة، منها:

1 – التقاعس عن الدعوة، والفتور عنها، ومن ثمّ الحرمان من أجرها وثوابها.

2 – إصابتهم بالإحباط واليأس والقنوط المنهي عنه، وفي هذا مخالفة شرعية لصريح القرآن الكريم.

3 – تأخر الدعوة وبعدها عن واقع الناس، ومن ثم اتهام الآخرين لها بعدم عملها في الواقع وعدم قدرتها على معالجة أوضاع الأمة.

4 – انتشار الشر والرذيلة على مستويات متعددة، ومن ثمّ تمكّن الباطل وأهله.

5 – معارضة سنن الله تعالى التي أقام عليها الكون كله.

والخلاصة:

بناءً على ما سبق نخلص إلى عدة نقاط نجمل فيها جملة أفكار هذه القاعدة:

1 – أن منهج القرآن الكريم النظر إلى المستقبل بتفاؤل وحسن ظن، وهكذا قصّ الله تعالى علينا في القرآن الكريم عن أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وبيَّن لنا منهجهم التفاؤلي.

2 – وهكذا علمنا النبي ﷺ التفاؤل في أقواله وأعماله، وسيرته، وكرّس هذا المنهج العظيم.

3 – أن التفاؤل الحق هو النظر للمستقبل بحسن ظن مع بذل الأسباب والجهد والطاقة، وعدم الركون إلى الاستسلام، والقعود، والاتكال على مجرد التفاؤل.

4 – التفاؤل لابد أن يكون واقعيًا، لا يصل إلى حدّ الأماني المقعدة أو التصورات الخيالية غير الواقعية.

5 – من المُسْلمات الشرعية أن التشاؤم، والنظر للمستقبل بمنظار أسود من سمات الجاهلية، ويدعو للقنوط من رحمة الله، ويقعد عن العمل والدعوة.

6- وعلى ذلك تبنى البرامج وتوضع الأهداف والآليات.

□□□□□

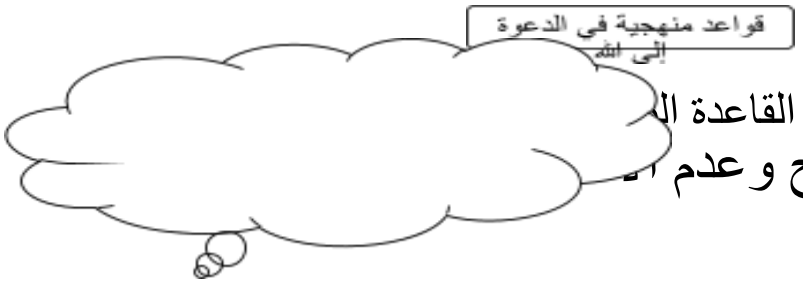

القاعدة الـ
التدرج وعدم الـ

مدخل: (إن التدرج في الدعوة والبدء بالأهم فالمهم ومعرفة الأولويات والعمل بها أدعى إلى قبول المدعو وأرجى لتحقيق أهداف الدعوة، كما أن الاستعجال في الأعمال، أو طلب النتائج آفة من الآفات وينافي حكمة التدرج).

ذلك أن تغيير النفوس ونقلها من ميولها ومألوفاتها أمر ليس سهلًا، وإن الأعراف التي استقرت في العقول وتواطأ الناس عليها لا تتغير بأمر يصدر، أو دعوة توجه، والعادات في السلوكيات التي تجذرت وترسخت لا يتصور اقتلاعها في يوم وليلة، ولذا فلابد من إدراك حقيقة مهمة للدعاة، وهي أنه لا زمان للتغيير والإصلاح وحصول الاستجابة، فلا بد من التدرج وعدم الاستعجال.

والتدرج: هو التقدم بالمدعو شيئًا فشيئًا للبلوغ به إلى غاية ما طلب منه وفق طرق مشروعة مخصوصة، وكذا التقدم لبلوغ الأهداف وعمل الوسائل شيئًا فشيئًا.

والاستعجال: هو طلب الأمر قبل مجيئه وتحرّيه قبل أوانه.

ومن خلال هذا التعريف لكل من التدرج والاستعجال نرى أن التدرج ألزم للداعي وأنجح للدعوة، وأن الاستعجال لا يأت بخير للداعي والدعوة على حد سواء، لأن سنة الله قضت أن لكل شيء أجلًا مسمى يبلغ فيه نضجه، أو كماله، ومن ثم فإن تعجل الشيء قبل أن يبلغ أجله المقدر لمثله لا يأت بالثمرة المرجوة منه، كالزرع فإنه إذا حصد قبل أوانه فإنه لا ينتفع به النفع المرجو، بل قد يضر ولا ينفع.

التدرج سنة كونية:

على الداعية أن يعلم أن التدرج سنة من سنن الله تعالى في الكون، فقد خلق الله تعالى الخلق على أطوار ومراحل، مع قدرته سبحانه

---

[117](*) هذه القاعدة فيها بعض التداخل مع قاعدة: العناية بالكل أو الجزء ولكني أفردتها هنا، وفصلت فيها لأهميتها في واقعنا اليوم.

وتعالى على خلقهم جميعًا دفعة واحدة.

فالسماوات والأرض خلقها الله في ستة أيام، وكان قادرًا أن يقول: كوني فتكون، قال تعالى: 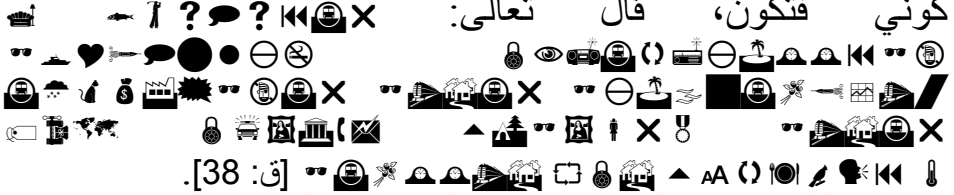 [ق: 38].

وكذلك نرى خلق الإنسان والحيوان والنبات كلها تتدرج في مراحل حتى تبلغ نماءها وكمالها، قال تعالى: 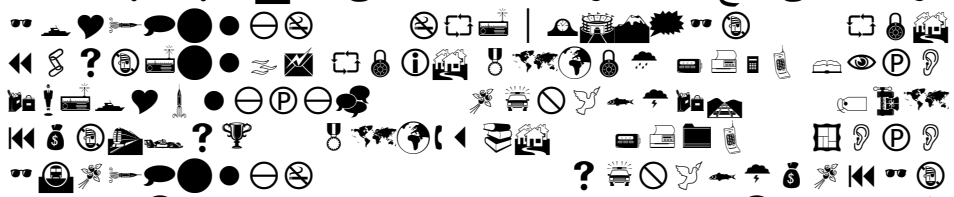 [المؤمنون: 12 -14].

وقال تعالى: [نوح: 13 -14].

والتدرج سنة شرعية:

كما أن التدرج سنة كونية فهو أيضًا سنة شرعية، إذ اقتضت حكمة الباري سبحانه وتعالى أن يتدرج في التشريع شيئًا فشيئًا، لأن طبيعة البشر تأبى قبول الأحكام جملة واحدة، أو الامتناع عن المحرمات مرة واحدة، وذلك لما ألفته النفس واعتادت عليه من العادات في جاهليتها، واستشكال ما هو جديد من العبادات، لذلك جاءت السنة الشرعية موافقة تمامًا لسنة الله الكونية.

قال تعالى: [الإسراء: 106].

فالقرآن الكريم الذي جاء لهداية البشرية لم ينزل إلى الناس دفعة واحدة، وإنما نزل متدرجًا على مدار ثلاث وعشرين سنة، يتدرج في الرقى بالمجتمع، وفي اقتلاع الفساد الاجتماعي المتجذر شيئًا فشيئًا، وهكذا بدأ بأحكام العقيدة قبل أحكام الشريعة، وفي العقيدة بدأ الإيمان بالله قبل الإيمان بالأركان الأخرى، وفي العبادات بدأ بالصلاة قبل غيرها..

مقدمًا في كل هذا الأهم على المهم، والحكم الواحد نفسه كثيرًا ما كان يشرع على مراحل، يوازن في المرحلة الأولى – إذا كان الحكم تحريمًا – بين المصالح والمفاسد ليهيئ النفوس إلى قبول الحكم ثم ينتقل إلى التحريم الجزئي وأخيرًا يأتي التحريم النهائي الكلي، كان هذا في تحريم الخمر وفي تحريم الربا وفي غيرها من الأحكام.

وهو منهج تربوي حكيم لولاه لصعب معالجة الظواهر الاجتماعية الفاسدة، لذا قالت أم المؤمنين عائشة ك: «إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنْ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا لَا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا وَلَوْ نَزَلَ لَا تَزْنُوا لَقَالُوا لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا» [118].

قال ابن حجر معلقًا على هذا الحديث: «أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب النزول، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس إلى ذلك أنزلت الأحكام، ولهذا قالت: «ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندعها»، وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف»[119].

ولم تحد سنة الرسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا المنهج، ومن أقواله التي تراعي مبدأ التدرج، أنه لما بعث معاذا ط على اليمن قال: «إنك تقدم

---

[118]() أخرجه البخاري: (6/228رقم4993)، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن.

[119]() فتح الباري: (8/657).

على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم وترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس»[120].

وحين كان يسأل عما يجب على من دخل في الإسلام يبدأ بالأركان المهمة، فعن طلحة بن عبيد الله يقول: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد، ثائر الرأس يسمع دوي صوته ولا يفقه ما يقول، حتى دنا، فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «خمس صلوات في اليوم والليلة». فقال: هل علي غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوع». قال رسول الله ﷺ: «وصيام رمضان» قال: هل علي غيره؟ قال: «لا، إلا أن تطوع» . قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة. قال: هل علي غيرها؟ قال «لا، إلا أن تطوع». قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص. قال رسول الله ﷺ: «أفلح إن صدق» [121].

التدرج منهج دعوي:

ودعوته ﷺ أيضًا كانت على مراحل قسمها بعض العلماء إلى أربعة:

المرحلة الأولى: كانت سرًا واستمرت ثلاث سنوات.

المرحلة الثانية: كانت جهرًا دون قتال واستمرت إلى الهجرة.

المرحلة الثالثة: كانت جهرًا مع قتال البادئين والمعتدين واستمرت إلى صلح الحديبية.

المرحلة الرابعة: كانت جهرًا مع قتال كذلك، لكن مع قتال كل من يقف في وجه الدعوة [122].

فعلى الدعاة أن يراعوا هذا المنهج العظيم في تغيير النفوس، وأن يتدرجوا بها شيئًا فشيئًا، وأن يعدوها لتقبل الحق ويهيؤها لذلك، كما يهيأ الطفل للفطام بعد الرضاعة، فالطفل الرضيع إذا منع مرة واحدة

---

[120] () أخرجه البخاري: (2/147رقم1458)، كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، ومسلم: (1/50رقم19)، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين.

[121] () أخرجه البخاري: (1/18رقم46)، كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام، ومسلم: (1/40رقم11)، كتاب الإيمان، باب الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام.

[122] () زاد المعاد (1/20).

من الرضاع ربما أصيب بضرر بالغ قد يهلكه، وإذا أخذ بالتدرج كان ذلك عونًا له على الاعتماد على نفسه.

التدرج سنة لم تنسخ:

فإن قيل: إن التدرج كان قبل نزول الأحكام، وفرض العبادات، وقد تمت الأحكام، وفرضت العبادات، فلا تدرج بعد اليوم.

والجواب من وجوه:

أولًا: إن التدرج منهج مرحلي، وطريقة دعوية، لا تنسخ كأحكام الحلال والحرام المعرضة للنسخ.

ثانيًا: إنه لا دليل على نسخ التدرج لمن يحتاجه، وتمام الشريعة لا يتعارض مع بقاء سنة التدرج في بعض الأحوال، ومع بعض الأعيان، بل لو قيل: إن من تمام الشريعة وكمالها وجمالها بقاء سنة التدرج لكان صحيحًا، وذلك ليتناسب هذا الدين وأحوال الناس كافة، ولو سلم بأن التدرج منسوخ، فكيف ستتعامل هذه الشعوب المسلمة التي خرجت مما وقع فيها من الفتن – كالشعوب التي كانت تخضع للحكم الشيوعي مثلًا – وهي لا تعلم عن دينها شيئاَ،فلا تلقي عليهم الإسلام جملة واحدة وإنما التدرج ليتم قبول الإسلام.

ثالثًا: إن التدرج كان لعلة، فإذا زالت زال، وإذا وجدت وجد.

وعلته: وجود مجتمعات غير مسلمة تدعى إلى الإسلام، أو وجود مسلمين حديثي عهد بجاهلية، أو وجود تراكمات من المعاصي.

ووجود هذه الأصناف –وهي على التدرج- ما زالت قائمة، وستبقى إلى يوم القيامة، وببقائها تبقى سنة التدرج، لذلك يشرع في حق هؤلاء التدرج، ولو بعد ثبوت الأحكام الشرعية.

رابعًا: أن الرسول ﷺ قد تدرج في بعض الحالات مع بعض الأقوام والأفراد بعد نزول الأحكام، ومن أروع ما يستدل به على ذلك حد:

حديث وفد ثقيف فعن وهب قال: (سَأَلْت جَابِرًا عَنْ شَأْنِ ثَقِيفٍ إذْ بَايَعَتْ، قَالَ اشْتَرَطَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ لَا صَدَقَةَ عَلَيْهَا وَلَا جِهَادَ، وَأَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ يَقُولُ: «سَيَتَصَدَّقُونَ وَيُجَاهِدُونَ إذا

أسلموا»)[123].

ففي هذا الحديث دليل واضح على بقاء حكم التدرج، لمن دخل في الإسلام، وبعد ثبوت الأحكام في الدين، فإن المسألة لا تتعلق بأصل دين الإسلام، وإنما تتعلق بدين الرجل نفسه، وحاله وقوة إيمانه، ومدى استجابته.

خامسًا: أن اختلاف المجتمعات في أحوالها وأحكامها ومواقفها يقتضي بقاء منهجية التدرج لتتناسب وهذه المجتمعات كل حسب حاله، فالمجتمع الذي يشبه الوضع المكي، كأن يوجد مسلمون ضعفاء مضطهدون بين أظهر الكافرين، لا يسمح لهم بالدعوة، ولا يستطيعون إقامة شعائرهم، ولا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. فضلًا عن الجهاد، وإقامة الحدود، فإن قومًا من المسلمين كذلك، فيشرع لهم الاقتداء بأفعال الرسول ﷺ بمكة، من أداء ما يستطيعونه من العبادات، والانتهاء عما يستطيعونه من المحرمات، ويجب عليهم الرد الكريم، والصفح الجميل، والعفو عن المؤذين، وكف الأيدي، ويحرم عليهم الرد بالعنف والقتال[124].

قال تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: 85]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ [النساء: 77].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف وفي وقت هو فيه مستضعف، فليعمل بآية الصبر والصفح والعفو عمن يؤذي الله ورسوله، من الذين أوتوا الكتاب والمشركين، وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين»، وبآية:

---

[123] () أخرجه أبو داود: (3/163رقم3025)، كتاب الخراج، باب ما جاء في خبر الطائف، وصححه الألباني في الصحيحة (1888).

[124] () انظر: منهج الدعوة في ضوء الواقع المعاصر: ص: (243-244).

[التوبة: 29][125].

منهجية التدرج في الدعوة:

إن مراعاة سنة التدرج في الدعوة الإسلامية ينبغي أن تنظم في خطة مدروسة تشتمل على محورين لابد منهما:

المحور الأول:

هو التدرج بتقديم ما هو أصل على ما هو فرع، فيبدأ بتقديم ما هو أصل على ما هو فرع، إذ يبدأ بالأهم، لكي يقنع الناس به، ويحملهم على قبوله، فإذا ما استقر في القلوب، واستجابت له النفوس، انتقل إلى مادون ذلك من أمور تأسيًا برسول الله صلى الله عليه وسلم حينما أنفق ثلاث عشرة سنة من عمره في معالجة قضايا العقيدة، وبعض العبادات، لينتقل بعد ذلك إلى معالجة ما هو فرع من السلوك العملي.

وهذا الأمر يتجلى في وصيته صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل ط حين بعثه إلى اليمن فقال له: «إنك تأتي قوم أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم: أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم: أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإن ليس بينها وبين الله حجاب» [126].

لقد أمره أن يبدأ بالقضية الأولى والقضية الكبرى والقضية الأساس في هذا الدين، قضية العقيدة ممثلة في قاعدتها الرئيسة: الألوهية وإفراد الله بالعبادة، لقد كان يخاطب بهذه الحقيقة الإنسان، بما أنه إنسان.

إن ما ورد من تدرج في التبليغ، والبداية بالمهم في حديث معاذ ط، ليس إرشادًا نبويًا، بل تدبيرًا إلهيًا يتجاوز الحالة الخاصة في تحويل أهل الجاهلية من واقع جاهليتهم الباطلة إلى الحياة الإسلامية،

---

[125] () الصارم المسلول (2/413).

[126] () أخرجه البخاري: (2/158رقم1496)، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، ومسلم: (1/50رقم19)،كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام.

وكل واقع بعيد عن الإسلام ([127]).

إن انفكاك القرون عما ألفت، وانتقالها إلى طور جديد من الوعي والسداد، لن يتم دفعه دفعة واحد، ولن يكون بأمر مباشر يصدر لها في معظم الأحيان، فلابد أن يسبق الانتقال مرحلة إعداد ينشأ عنها العزم على ذلك الانتقال.

ويتجلى ذلك من موقف الرسول ﷺ، إذ أنه لما قدم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ دعاهم أول ما دعاهم إلى التوحيد، فأعلنوا إسلامهم ثم اشترطوا عليه أن يدع لهم اللات ثلاث سنين فأبى عليهم أن يدعها شيئًا مسمى، وأبى إلا أن يبعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ليهدماها، وسألوه مع ذلك ألا يصلوا، وألا يكسروا أصنامهم بأيديهم، فقال: أما كسر أصنامكم بيديكم فسنعفيكم من ذلك، وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه، فقالوا: سنؤتيكها وإن كانت دناءة، ولا يستعمل عليهم غيرهم، فأجابهم إلى ذلك.

فعن وهب قال: سألت جابرا عن شأن ثقيف إذ بايعت، فقال: اشترطت على النبي ﷺ أن لا صدقة عليها ولا جهاد، وأنه سمع النبي ﷺ بعد ذلك يقول: سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا([128]).

ولقد كان نتيجة ذلك إسلام القوم، وتهديم اللات، واندحار الشرك والوثنية من ديارهم.

إن تدرج رسول الله ﷺ معهم من خلال بدايته بالعقيدة أولًا، وموافقته لهم على الإعفاء من الصدقة والجهاد قد تحقق به وعد الله الذي جاء على لسان رسول ﷺ حين قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: «إنهم سيتصدقون ويجاهدون».

فقد أسلمت ثقيف فيما بعد، وجاهدت في الله حق جهاده، واعتصمت بإسلامها، ولاذت بإيمانها يوم طغى سيل الردة.

يقول المغيرة بن شعبة ط: «لقد دخلوا في الإسلام فلا أعلم قوما من العرب بني أب وقبيلة،كانوا أصح أسلاما ،ولا أبعد أن يوجد فيهم غش لله ولكتابه منهم»([129]).

---

[127]() انظر: بحوث ودراسات في الدعوة والإعلام، ص: (71-72)، أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة: ص: (586-587).

[128]() سبق تخريجه.

[129]() انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (1/313-413).

المحور الثاني:

التدرج في إبدال الصورة بالانتقال من الأدنى إلى الأعلى، إن حركة الإسلام في إصلاح نفوس البشر تعتصم بالأنموذج الكلي، وتصر على أن الدين لابد أن يؤخذ جملة واحدة، إلا أنه لبلوغ الكل لابد من البدء بالجزء، فهي لا تؤمن ببعض، وتكفر ببعض، بل تؤمن بالإسلام كله، ولكنها تحاول أن تطبق ما تيسر منه.

عن أبي هريرة ط قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم» ([130]).

إنه لمن الصعب على بعض الناس أن ينخلع عن فكره، وواقعه، وعاداته، خلال طرفة عين، لذلك لابد للدعاة أن يقدروا ذلك فلا يحاولوا نقلهم من واقعهم ذلك إلى المثالية السامقة دفعة واحدة.

وقد ... شيخ الإسلام ابن تيمية : ذلك بأدلة وبراهين بالنزول عن المثالية السامقة إلى واقع دونها والرضا به، والسكوت عنه، إذا كان في الخروج على هذا الواقع ضرر، إلا أنه لم يغفل بجانب ذلك السعي في التدرج في إصلاح الأحوال، حتى يكمل الناس ما لابد لهم منه، كما يجب على المعسر، السعي في وفاء دينه، وإن كان في الحال، لا يطلب منه إلا ما يقدر عليه([131]).

إن ذلك الأمر هو ما تنبه له الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز : الذي كان يرى التدرج في نقل الناس من واقعهم إلى المثال المنشود، ومما يروى عنه في ذلك:

1- حكى أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز : قال يومًا لأبيه عمر: ما لك لا تنفذ الأمور؟ فوالله ما أبالي لو أن القدور غلت بي وبك في الحق. قال عمر: لا تعجل يا بني، فإن الله ذمّ الخمر في القرآن مرتين، وحرمها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الفاس على الحق جملة فيدفعوه جملة، ويكون من ذا فتنة([132]).

2- وروى أن ابنه دخل عليه فقال يا أمير المؤمنين: ما أنت قائل

---

[130]() أخرجه البخاري: (9/117رقم7288)، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، ومسلم: (2/975رقم1337)، كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار.

[131]() ينظر: السياسة الشرعية في أحوال الراعي والرعية: ص: (36) وما بعدها.

[132]() الموافقات: (2/93-94).

لربك غدا إذا سالك فقال رأيت بدعة لم تمتها أو سنة فلم تحييها؟.

فقال أبوه: رحمك الله وجزاءك من ولد خيرًا يا بني، إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة، وعروة عروة، ومتى أردت مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا على فتقًا يكثر في الدماء، والله لزوال الدنيا أهون على من يراق في سببي محجمة من دم، أو ما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ويحيي فيها سنة [133].

وروى البخاري عن الأسود بن يزيد النخعي قال: قال لي ابن الزبير: كانت عائشة ك تسر كثيرا فما حدثتك في الكعبة، قلت قالت لي: قال النبي ﷺ يا عائشة لولا قومك حديث عهدهم قال ابن الزبير بكفر لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين باب يدخل الناس وباب يخرجون ففعله ابن الزبير[134].

فقد بيَّن رسول الله ﷺ في هذا الحديث وجه الحق الذي يجب أن يكون، لكنه لم يغفل الواقع القائم، وقد يترتب على التحقيق الفعلي، لما يجب أن يكون عليه الأمر في النهاية، ضرر يصيب المسلمين، فاكتفى بإثبات الحق قولًا، وإرجاء تحقيقه عملًا، مراعاة للواقع.

إن قريشًا كانت تعظم الكعبة جدًا، فخشي ﷺ أن يظنوا لأجل قرب عهدهم بالإسلام أنه غيَّر بناءها لينفرد بالفخر عليهم في ذلك.

ويستفاد منه: ترك المصلحة لأمن الوقوع في المفسدة، ومنه ترك إنكار المنكر خشية الوقوع في أنكر منه، وأن الإمام يسوس رعيته بما فيه إصلاحهم ولو كان مفضولًا ما لم يكن محرمًا[135].

ويؤيد ذلك ما قاله علي بن أبي طالب ط: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟»[136].

وما قال ابن مسعود قال: «ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة» [137].

وقال الإمام الشافعي: «لو أن محمد بن الحسن كان يكلمنا على

---

[133]() تاريخ الخلفاء للسيوطي: ص: (240).

[134]() أخرجه البخاري: (2/180رقم1586)، كتاب الحج، باب فضل مكة وبنيانها.

[135]() انظر: فتح الباري: (1/225).

[136]() أخرجه البخاري معلقًا: (1/44)، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم.

[137]() أخرجه مسلم: (1/10رقم5)، المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما يسمع.

قدر عقله ما فهمنا عنه لكنه كان يكلمنا على قدر عقولنا فنفهمه»[138].

الحال الذي عليه حتى يخاطب القلوب فتتأثر بما يقول، وتترجم الجوارح هذا القول عملًا خالصًا، وهذا من نتائج حسن التدرج.

إن بعض الدعاة يريدون للمرضى أن يشربوا الدواء دفعة واحدة لا كما حدده الطبيب تدرجًا، ولو فعل المرضى ذلك لهلكوا، ولكن الحكمة تقتضي التدرج في الدواء حتى يكون الشفاء بإذن الله.

إن مبدأ التدرج مبدأ أساسي في دعوة الناس لدين الله حتى يفهموه على قدر عقولهم، ويقبلوا عليه بقلوبهم، فضع أخي الداعية هذا المبدأ نصب عينيك وأنت تدعو الناس إلى دين الله.

إننا نرى اليوم بعض الإخوة المخلصين لا يلتفت إلى هذا المبدأ، وكل ما يهمه أن يصحح عقائد الناس بطريقة ينفر منها أكثر الناس، وتراهم يخاطبون الناس جميعًا لا فرق عندهم، بين عالم وجاهل، أو أمي ومتعلم، أو حضري وبدوي، الكل عندهم سواء في الخطاب، ويناقشون معهم مسائل لو عرضت على أئمة كبار لتحرج أن يتكلم فيها.

إن التغيير المفاجئ يحدث في الجسم الحي اضطرابًا، قد تكون له آثار سيئة على صحة الجسم.

على أن هذا التدرج لا ينبغي أن يكون متروكًا للصدفة – سواء أكان على مستوى الفرد أو المجتمع – بل ينبغي أن ينتظم في خطة مدروسة بالنسبة إلى الدعوة الفردية من الداعي أو في خطة مدروسة على مستوى المجتمع وهذا من أكبر مهمات الفكر الواقعي الذي يتعامل مع واقع المجتمع ليأخذ بيده إلى الكمال الإنساني[139].

التدرج لا يبيح حرامًا ولا يسقط واجبًا:

إن تقرير قضية التدرج في منهج الدعوة، لا يعني: إسقاط الواجبات أو إباحة المحرمات.

فالواجب واجب إلى قيام الساعة، والمحرم محرم إلى قيام

---

[138]() ينظر: الآداب الشرعية لابن مفلح: ص: (161).

[139]() ينظر: من كتاب الدعوة الإسلامية – بحث مقدم إلى الندوة العالمية للشباب الإسلامي، تحت عنوان (الفكر الواقعي في النهضة الإسلامية)، د: عبد المجيد النجار: ص: (221). الدعوة قواعد وأصول: ص: (194-195).

الساعة.

فإن قيل: فكيف يرى الحرام ولا ينكره؟، قيل: يجوز أن يسكت عنه سكوتًا مؤقتًا إذا كان يعالج ما هو أكبر منه، أو يمهد لإنكاره، وإلا فكيف كان يسكت رسول الله ﷺ عما كان يعلم وجوب تغييره؟ كما سبق ذكره في بعض الأمثلة.

بهذا يتضح أن التدرج: هو منهج دعوي يخص الداعية، لينقل المدعوين من حال إلى حال، لا أن يبيح لهم ما حرم الله، أو يسقط عنهم ما أوجب الله، ويتضح هذا في صورتين:

الأولى: صورة من كان مسلمًا، ويعيش بين المسلمين والعلماء، قد عرف التوحيد والشرك، والحلال والحرام، فهذا ليس له في التدرج شأن.

الثانية: صورة من كان يريد الإسلام، أو هو حديث عهد بجاهلية، لا يعرف توحيدًا ولا شركًا، ولا حلالًا ولا حرامًا، فهذا الذي شرع في حقه التدرج، ولا يحاسب إلا على ما بلغه، وأقيمت الحجة عليه فيه.

ويلحق هذه الصورة من كان غارقًا في جهله، غائصًا في ذنوبه فيستدرج إلى الخير درجة درجة، وينقذه من الضلال دركة دركة.

والخلاصة: بعد هذا التأصيل في قضية التدرج نخلص إلى:

1- أن التدرج سنة كونية وسنة شرعية.

2- أن التدرج منهج دعوي خاضع للحال والزمان والمكان والداعية والمؤسسة الدعوية.

3- أن التدرج منهج دعوي لا يلغي حكمًا واجبًا فينقله إلى غير الوجوب ويلغي حكمًا محرمًا، فينقله إلى غير التحريم.

4- أن للتدرج فوائد عظيمة وآثارًا إيجابية إذا ما اتخذ منهجًا أحسن تطبيقه في الدعوة.

5- يمكن أن يطبق مبدأ التدرج في أبعاد عدة في الدعوة ومنها:

أ - في نقل الكافر إلى الإسلام كما سبق التفصيل فيه.

ب - في نقل المنغمسين في المعاصي إلى الطاعات فيتدرج معه في ترك الكبائر أو الأكبر منها، وفي فعل الطاعات كالصلاة ثم الزكاة إن كان من أهلها كما سبق في حديث بعث معاذ بن جبل ط.

ج - في التدرج في طلب العلم فيبدأ بصغار العلم قبل كباره،

وبالتواعد والأصول قبل الفروع والتفصيل، وفي الواضحات ثم المبهمات والمشكلات، وفي المتون قبل الشروح، وهكذا.

د - التدرج في تحمل المسؤوليات شيئًا فشيئًا حتى على مستوى إلقاء درس أو موعظة.

هـ - التدرج في توجيه الناس في معالجة الظواهر الاجتماعية الخاطئة المنتشرة في المجتمع فيوجه الناس إلى معالجتها شيئًا فشيئًا.

ز - ومن التدرج التدرج في تغيير المنكر سواء من جهة اجتماع عدد من المنكرات فيبدأ بالأكبر ويركز عليه، مع عدم إهمال غيره مما هو أقل منه إلا أنه الأصغر يجب ألا يستغرق الجهود، أو من جهة نوعية الإنكار وطبيعته فينكر بالوسيلة الأسهل التي يندفع بها المنكر.

أو من جهة الآثار المترتبة على هذا الإنكار فيبدأ بما لا يترتب على إنكاره أضرار وهكذا.

ح - ومن التدرج التدرج في التربية سواء من الأب لأبنائه، أو من المعلم للتلاميذ، أومن الداعية والمرشد لمدعويه، فيبدأ بالأهم، وبالأسهل فإن النفوس تقبل المهم والسهل وتأبى الصعب والمخالف لما هي عليه،

ط - من التدرج أيضًا: التدرج في الأسلوب والخطاب الدعوي بين اللين والشدة، وبين الترغيب والترهيب.

ي - ومن أعظم مجالات التدرج: التدرج في نقل المجتمع بعامة من حالة السلبية والضعف والبعد عن الدين إلى حالة النشاط والإيجابية في خطة زمنية تتناسب والمرحلة التي يعيشها ذلك المجتمع.

ك - غير ذلك من المجالات الكثيرة التي هي من مجالات لتدرج في الدعوة، وبناء على ذلك أقول: إن من الخير العظيم والأثر الحميد، والفوائد والعوائد الآنية والمستقبلية، على الفرد والمجتمع، وللداعية والدعوة: أن ترسم الخطط للإصلاح والتربية مراعية هذا المبدأ الذي أصّل في القرآن الكريم، وتعامل به النبي ﷺ في دعوته.

6- ومن بدهي القول أن ضد التدرج الاستعجال، والعجلة مذمومة في غالب أحوالها إلا في المبادرة إلى الطاعات، ومن تعجل شيئًا قبل أوانه عوقب بحرمانه.

ومن العجلة المذمومة: التعامل بها في الدعوة وخطابها، ومن

ذلك:

- استخدام الأساليب العنيفة من الغلظة في القول والخطاب دون مبرر شرعي، ومن المؤسف أن هذا يكثر عند بعض الدعاة، حتى أوصل بعضًا منهم إلى الحنق والضيق على المجتمع فقادهم إلى الحكم عليهم بالكفر أو الفسق أو غيره.
- ومن العجلة الاهتمام بمعالجة الظواهر الخاطئة الأصغر مع ترك ما هو أكبر فيشتغل بذلك الأدنى عن الأعلى.
- ومن العجلة: محاولة اختصار الزمن في طلب العلم مثل: قراءة المطولات قبل المختصرات، والاهتمام بالشروح قبل المتون، وبالغوص في الفرعيات والجزئيات دون معرفة الكليات.
- ومنها: التسرع في الحكم على الأشياء والأشخاص بالتصويب والتخطئة بدون استدلال واضح، أو مشاورة عالم معتبر.
- ومنها: الاتجاه في الإصلاح إلى المجالات الصعبة والمعقدة في المجتمع، دون تربية الناس على تقبل الإصلاح كمن ينتقد بعض الأنظمة الاقتصادية أو السياسة ونحوها دون تبين أحكامها، ويُربى الناس على قبول هذه الأحكام.
- ومنها: الإنكار على صغائر الذنوب مع وجود مخالفات في العقيدة واضحة كما في بعض المجتمعات المسلمة.
- ومنها: تتبع الظواهر الخاطئة دون إيجاد مشاريع تربوية أو إصلاحية من شأنها أن تعالج كل سلبي من الأفراد أو المجتمعات وغير ذلك كثير.

إن من الخير العظيم للداعية وهو يرسم منهجه و أسلوبه في الدعوة أن يراجع ما لديه من أساليب وطرق ورؤى في ضوء هذه القاعدة الأصيلة.

النتائج المترتبة على غياب هذه القاعدة:

إن غياب هذه القاعدة من منهج الداعية يورث آثارًا سلبية خاصة وعامة، ومنها:

1 – مخالفة سنة الله تعالى الكونية، والشرعية.

2 – توقف حركة الدعوة، وتعثر مجالاتها الإصلاحية لأن في ترك هذه القاعدة صدامًا مع الواقع الذي لا يستطيع تغييره إلا بالتدرج.

3 – ومن ذلك أيضًا فتور الداعية، وصدامه مع نفسه، ومع المجتمع فتشل حركته، ويصل إلى اليأس والقنوط، ومن أصيب بذلك يحاول تبرير فشله بأن المجتمع هو الذي لم يتقبل دعوته، وهو سبب التعثر والوقوف، والملل والفتور.

4 - ومن ذلك أيضًا انتشار الظواهر الخاطئة، والمنكرات الكثيرة وتداعيها بسبب عدم التقدم الملموس في الدعوة أو معالجة تلك الظواهر.

5 - ومن ذلك أيضًا تشويه حقيقة الإسلام –وبخاصة في المجتمعات الكافرة- وتشويه حقيقة التدين والدعوة – في المجتمعات المسلمة- لأن القوالب التي قدّمت بها قوالب غير سليمة وما الأحداث التي تمت في عصرنا باسم الدعوة وتسببت في القتل والتدمير إلا صورة مبسطة لصور الاستعجال المذموم في تبليغ الدعوة للناس.

وأخيرًا أقول:

إن من الخير المراجعة الصادقة للدعوة في مناهجها ومبادئها وأساليبها والمصارحة والشفافية والصدق ليتم التقويم السليم ومن بنود المراجعة المهمة: مراجعة الخطوات والخطط والأساليب وإعادة النظر والعمل بقاعدة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ط: «ذاك على ما قضينا وهذا على ما نقضي».

□□□□□

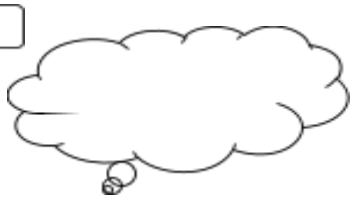

الخاتمـة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تعلو المكرمات، وأصلي وأسلم على سيدنا ونبينا محمد أفضل الخلق والبريات، وعلى آله وأصحابه وأزواجه الطاهرات، والتابعين ومن تبعهم على نهج الهدى، إلى يوم تبعث البريات، **وبعد:**

فقد تمت هذه القواعد بحسب ما يسّر الله سبحانه وتعالى، وقد يكون من المناسب في هذه الخاتمة أن يذكر تلخيص يكوّن من خلاله منهج للدعوة، يستطيع الداعية الحصيف أن يجعله معالم يستنير بها في مراحل دعوته، ولذا، سأجعل هذه الخاتمة في ضوء الفقرات الآتية:

أولاً: إن الدعوة إلى الله جل وعلا من أشرف المقامات وأفضل الأعمال كما دلّ على ذلك النصوص القرآنية والنبوية، مما يحفز المسلم إلى أن ينضم في صفوف الدعاة على هدى وبصيرة.

ثانيًا: إن من أهم عناصر نجاح الدعوة والداعية أن يهتدي الداعية والدعوة بهدي محمد صلى الله عليه وسلم، وأن يستن بسنته، ويستنير بنوره، وهذا ما دل عليه قوله تعالى: 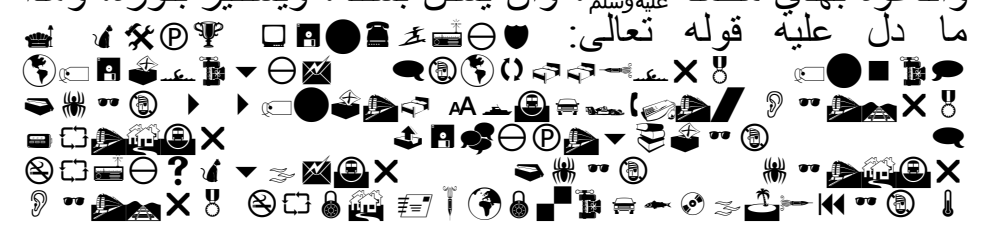 [يوسف: 108].

ثالثا: إن أصول الدعوة وأسسها ومقوماتها مسطرة في الكتاب والسنة، وظاهرة في عمل النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته، ولذا فمن أهم الغايات أن يدرك الداعية هذه الأصول والمقومات ليسير في دعوته وفق منهج صحيح، ورؤية واضحة، توصله إلى النتائج المرضية في أعظم المكاسب، وأقل السلبيات، مع وضوح المنهج وسلامته.

رابعًا: ومن الواجب على أهل العلم أن يسطروا ما يحتاجه الدعاة لوضوح المنهج، من قواعد وضوابط ومعالم تضمن السلامة وتريح الضمير.

خامسًا: من المهم صياغة منهجية الدعوة، ضمن ما سبق من القواعد والتي يمكن إجمالها وفق الآتي:

1 – أن ينطلق الداعية في عمله بعامة وفي دعوته بخاصة، من

إخلاصه لله سبحانه وتعالى، وبمقاصد سامية تعلو على مقاصد الدنيا، أو شهوات النفس، أو أن تكون في منافسة دنيوية، أو للتوصل إلى غايات خاصة، بل يجب أن تكون لله سبحانه وتعالى.

2 – أن يُحتذى في هذه الدعوة حذو محمد صلى الله عليه وسلم، فتحدد غايات الدعوة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى الموصلة إلى رضا الله جل وعلا، ودخول الجنة، والنجاة من النار، وكذلك عمارة الكون في هذه الحياة.

3 – أن يكون للدعوة أو الداعية هدفًا يسعى إليه، يوصل إلى الهدف الأكبر السابق كأن يحدد هدفه في التعليم، أو التربية، أو الإغاثة، أو مساعدة الآخرين، أو بناء المساجد، أو إنكار المنكرات الظاهرة، ونحو ذلك، وأن يكون هذا الهدف واضحًا، والرؤية فيه سليمة.

4 – أن تبنى الدعوة على علم شرعي، وتنضبط بالضوابط الشرعية، فينطلق الداعية في دعوته وفي عمله بتوازن بين العلم والعمل، فالله سبحانه وتعالى أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم أول ما أنزل التوجه للعلم [العلق: 1-5]، ثم أمر بالدعوة [المدثر: 1-2]، ثم أمر بالعبادة والعمل [المزمل: 1-4] فتقوم الدعوة على العلم والعبادة والعمل، والداعية يوازن في مسيرته الدعوية بين العلم والعبادة والعمل.

5 – ومن المعالم المنهجية التي تقوم عليها الدعوة: النظر تجاه المواقف والوسائل الدعوية بين المصالح والمفاسد، والقاعدة أن يعمل بالمصالح العليا لتقدم على ما هو أدنى، وتترك المفاسد، وتحتمل المفسدة الأدنى لتجتنب المفسدة الكبرى وهكذا.

6 – وفي الوقت نفسه تبنى الدعوة أهدافها وبرامجها على قاعدة الإصلاح متعدد الجوانب، مراعية الأولويات في البرامج

---

[140] () إتحاف السادة المتقين: (27،26،10).

والمناشط، والسير في خط البناء لمشاريع الخير، وخط المعالجة للمنكرات والأخطاء، فيجتنب افتعال التعارض بينهما، أو التصادم، فالخطان متوازيان ويكمل بعضهما بعضًا.

7 – ومع هذا ينبغي الجمع في إطلاق الأحكام وتحديد المواقف والغايات والأساليب بين النظرة العقلية، والنظرة العاطفية، وبين الترغيب والترهيب، وبين النظرة الكلية والنظرة الجزئية، كما أشرنا في مسائل المصالح والمفاسد.

8 – أن يتعامل الداعية في مسيرته الدعوية وفق التدرج المناسب للوصول إلى الهدف المطلوب، وأن يحذر من الاستعجال المذموم الذي يقضي على الدعوة أو يؤخرها.

9– والمسيرة الدعوية يحصل بين أفرادها اتفاق وخلاف، ومن هنا يستوجب العمل للاجتماع وأن يكون هدفًا في هذه المسيرة، والحذر من التفرق المذموم، مع مراعاة الفطرة البشرية في وقوع الخلاف، فيتعامل معه وفق الضوابط الشرعية.

10 – ومن المعالم المهمة في الدعوة مراعاة الأحوال والظروف، والعمل بالأهم فالمهم، والوعي بما هو أوجب فيقدم على الواجب، ويقدم ما لا يمكن تأجيله، وهكذا.

11 – ومن أبرز المعالم النظر إلى الآخرين في أعمالهم الدعوية أنهم مكملون لا مصادمين، وأن التنافس في الوصول إلى النتائج الإيجابية لا في التعارض والتضاد بين المشاريع الدعوية أو بين الدعاة.

سادسًا: أحسب أن من المهم تسطير هذه القواعد، وأمثالها لتحري المنهج الحق في السيرة الدعوية، ومحاولة بلوغ الأهداف أو مقاربتها.

سابعًا: كما أحسب أن من النتائج الإيجابية في العمل وفق هذه القواعد ما يلي:

1 – الاجتهاد في طريق الدعوة بأن تبلغ الأماني وأن تصل إلى الأهداف.

2 – السلامة من العوائق والعقبات المهلكة والموقفة لمسيرة الدعوة.

3 – العمل في الدعوة وفق منهجية مطمئنة مستقرة.

4 – براءة الذمة في القيام بهذه الأمانة العظيمة على أهل العلم.

5 – التوجه نحو منهج موحد أو متقارب بين عامة الدعاة.

6 – قلة نقاط الخلاف بين الدعاة، مع كثرة نقاط الاتفاق، وهذا من عوامل نجاح الدعوة، ووصولها إلى أهدافها المرجوة.

7 – إمكانية إعادة النظر والتقويم لما تم عمله، وحسن التخطيط مما

يستقبل من العمل.

أسأل الله تعالى أن يكون فيما كتب النفع والخير والفائدة للدعوة والدعاة، والبلاد والعباد، وأن يجعل ذلك العمل من الحسنات الجارية، في الدنيا والآخرة، وما كان فيها من صواب فهو من الله وحده، وأسأله الثواب المستمر عليه، وما كان من خطأ أو زلل أو تقصير فهو مني، وأسأل الله العفو والمغفرة إنه سميع قريب مجيب.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

□□□□□

كتبه

أ.د. فالح بن محمد بن فالح الصغير

البريد الإلكتروني : falehmalsgair@yahoo.com

الـفهــرس

الموضوع
الصفحة

المقدمة **5**
تمهيد
11
القواعد المنهجية
27
القاعدة الأولى: المقاصد والنيات
29
القاعدة الثانية: وضوح الرؤية والهدف
49
القاعدة الثالثة: الغايات والوسائل
72
القاعدة الرابعة: الموازنة بين العلم والعبادة والعمل
90
القاعدة الخامسة: فقد المصالح والمفاسد 107
القاعدة السادسة: البناء والمعالجة 129
القاعدة السابعة: التغيير والإصلاح 150
القاعدة الثامنة: العقل والعاطفة 165
القاعدة التاسعة: المثالية والواقعية 185
القاعدة العاشرة: العناية بالكل أو الجزء 202
القاعدة الحادية عشرة: في الائتلاف والاختلاف 213
القاعدة الثانية عشرة: الموازنة بين الترغيب والترهيب أو قل بين الرجاء والخوف 239
القاعدة الثالثة عشر: في التفاؤل 257
القاعدة الرابعة عشر: التدرج وعدم الاستعجال 277
الخاتمة 299